مُحاضرةٌ بعنوان

أمثالُ القرآن: أهميتها ومقاصدها

لِمعَالِي الشَّيْخِ الدُّكْتُورِ

سليمان الرحيلي

غَفَرَ اللّٰهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِمَشَايِخِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ؛

فإن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشر الأمور محدثاتها، وكل مُحدِثةٍ بِدعة وكل بِدعةٍ ضلالة، وكل ضلالةٍ في النَّار، ثُمَّ معاشر الفُضلاء معاشر الأحبة أحييكم بتحية أهل الإسلام فالسَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِّ وَبَرَكَاتُهُ، ثُمَّ أني أشكر الله عَزَّ وَجَلَّ أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا عَلَىٰ نِعمة الَّتِي لا تُعد ولا تُحصى، ومنها: أن يسر لنا مجالِس الذِكر وجعلنا من عُمارِها.

وأسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يرزقنا الإخلاص فيها، وأن ينفعنا بها ويُزكي بها نفوسنا، ثُمَّ أشكر صاحب السمو الشيخ: سعود بن صقر بن مُحَمَّد القاسمي عضو المجلس الأعلى، حاكِم رأس الخيمة عَلَىٰ: عنايته بهذه الجائزة، وعنايته: بالخير في هٰذِه الإمارة، أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يوفقه ويُسدِده ويُقرِبه من كل خير ويُقرِب منه كل خير، وأن يجعل له في أموره الرشد والسداد.

كما أشكر سعادة الشيخ: صقر بن خالد القاسمي رئيس مجلس مؤسسة رأس الخيمة، وأسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يجزيه خير الجزاء عَلَىٰ ما يبذله من جهودٍ في هٰذِه المؤسسة، كما يسُرني أن أشكر فضيلة أخي الشيخ: أحمد الشِحي مدير عام مؤسسة رأس الخيمة للقرآن الكريم وعلومه؛ وهو الشيخ الفاضل الَّذِي عرفته بالعلم وبحُسن الخُلق، وحُسن التعامل، وبالحِرص الشديد جدًا عَلَىٰ ما ينفع البلاد والعباد، عرفت فيه ولاءً صادقًا لولاة أمر هٰذِه البلاد، ومحبةً لأهل هٰذِه البلاد ومحبةً لطلاب العِلم.

ولا أزكي نفسي ولا غيري عَلَىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، فأشكره عَلَىٰ جهوده الطيبة المباركة وحرصه عَلَىٰ ما ينفع البلاد والعباد، كما يسرني أن أشكر أخي الشيخ: أحمد إبراهيم سبيعان الأمين العام لجائزة رأس الخيمة للقرآن الكريم وعلومه، وأشكركم جميعًا عَلَىٰ حضوركم، ولا تزدان المجالس إِلَّا بأمثالكم.

أسأل لله عَزَّ وَجَلَّ أن يبارك لكم وأن يرزقكم ما تحبون وفوق ما تحبون، وأن يجعل لكم من الفضل فوق ما تأملون.

ثُمَّ أَيُّهَا الإخوة إن أعظم المجالس وأفضلها وأبركها ما كان في العِلم فإنه مقربٌ إِلَىٰ الله، يقول نَبِيُّنَا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرَ اللهِ، وَمَا وَالَاهُ، أَوْ عَالِمًا، أَوْ مُتَعَلِّمًا».

«الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ»؛ أي: أن الدنيا الَّتِي تُشغِل عن الله عَزَّ وَجَلَّ مُبعدةٌ عن الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنها مُبعِدة عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ملعون ما فيها مِمَّا يُشغِل عن طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إِلَّا ذِكر الله وما والاه، فذكر الله جنةٌ للمؤمن، ربيعٌ للمؤمن، نعيمٌ للمؤمن في الدنيا وَالآخرة، كل عملٌ في الدنيا ينقطع في الجَنَّة إِلَّا ذَكَرَ الله عَزَّ وَجَلَّ، فإن المؤمن يُلهَم الذِّكْر والتسبيح في الجَنَّة كما يُلهَم الناس في الدنيا النفس.

وَهٰذَا دليلٌ عَلَىٰ: أن ذَكَرَ الله عَزَّ وَجَلَّ نعيمٌ للمؤمن في الدنيا، «وَمَا وَالَاهُ» أي: ما أحبه الله عَزَّ وَجَلَّ من: الأقوال، والأعمال، والاعتقادات الظاهرة والباطنة، «أَوْ عَالِمًا، أَوْ مُتَعَلِّمًا»؛ فالعلم تعلمه وتعليمه مقربٌ من الله عَزَّ وَجَلَّ، وأهله قريبون من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وخير مجالس العِلم ما كان: عن القرآن، وما كان عن كلام ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

يقول النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»، ويقول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»، فالله عَزَّ وَجَلَّ يحب عباده الَّذِينَ يعظمون كلامه ويتدارسون كلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَلَا شَكَّ أحبتي في الله يا أمة القرآن: أن المؤمن ينبغي عليه ألا يُخلي نفسه من القرآن، بل يحرص عَلَىٰ أن يحفظ القرآن كله، وإن لم يستطِع يحفظ ما استطاع من ذلك، ويحرص عَلَىٰ أن يتلو القرآن وعَلَىٰ أن يقوم بالقرآن آناء اَللَّيْل، وآناء النَّهار، فإن عجز عن ذلك فلا أقل من أن ينوي ذلك، وأن يتمنى أن يكون كذلك، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ إِذَا رأى من عبده صِدق اَلنِّيَّة كتب له أجر ما نوى.

ولذلك كان أعظم حسد الغِبطة وأعلى حَسد الغِبطة: أن يرى الرجل أن الله عَزَّ وَجَلَّ آتى عبدًا من عباده القرآن، فهو يتلوه آناء اَللَّيْل، وآناء النَّهار، فيسمعه فيقول: يا ليتني أوتيت مثل فلان، وعمِلت مثل عمله، وَهٰذَا -أَيُّهَا الأَحِبَّة- يؤجر بهذه اَلنِّيَّة الطيبة المباركة، وإنك لا تزال ترجوا للأُمَّةِ الخير ما رأيتها مقبلةً عَلَىٰ القرآن، ما رأيتها مهتمةً بتدارس القرآن الكريم.

وَلَا شَكَّ -أَيُّهَا الأَحِبَّة-: أن الله عَزَّ وَجَلَّ أنزل القرآن نورًا للناس، ورحمة للعالمين، أنزله عَلَىٰ الناس ليتدبرو آياته ويتذكر أولو الألباب، أنزله من أجل أن يتعظ الناس بما فيه، وأن يُنير حياتهم، ومن المعلوم: لكل قارئ للقرآن أن البيان في القرآن جاء بسورٍ متعددة وذلك لتقريب المعاني إِلَىٰ أذهان الناس، فأعظم البيان وأعذبه هو: ما جاء في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وإن من أعظم وجوه البيان في القرآن: ضرب الأمثال.

فالله عَزَّ وَجَلَّ يضرب الأمثال للناس في القرآن؛ قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩]؛ أي: أن الله عَزَّ وَجَلَّ صرف للناس في هٰذَا القرآن البيان: بضرب الأمثال، وقرب إليهم المعاني بضرب الأمثال، وهي معاني تُدرِكها القلوب فتشكر وتُقبِل عَلَىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، لكن أكثر الناس لم يُدرِكوا هٰذَا وأبوا إِلَىٰ الكفور والجحود.

يقول الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: يقول جل ذِكره: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الإسراء: ٨٩]؛ احتجاجًا بذلك كله عليهم، وتذكيرًا لهم، وتبيهًا عَلَىٰ الحق ليتبعوه ويعملوا به، فأبى أكثر الناس إِلَّا جحودًا للحق وإنكارًا لحُجج الله وأدلته، ويقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

وفي هٰذَا دلالة أَيُّهَا الإخوة عَلَىٰ: أن القرآن مُبينٌ للحق، لكن أكثر الناس إِنَّمَا يصرفهم عن الحق الجدل، والمجادلة بالباطل، ومقابلة الحق بالعبارات الزائفة، وَهٰذَا ظاهرٌ جدًا يا إخوة، فإنك إِذَا تأملت ضلال مَن ضل عن عِلم، إِنَّمَا تجد أنهم إِنَّمَا ضلوا من باب: الجدل، ومقابلة الحُجج البيانية القرآنية بالمقالات، والعبارات، وجمع الألفاظ من هنا وهناك.

يقول الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: يقول عزّ ذِكره: ولقد مثلنا في هٰذَا القرآن للناس من كلّ مثل، ووعظناهم فيه من كلّ عِظة، واحتججنا عليهم فيه بكل حُجة ليتذكَّروا فينيبوا، ويعتبروا فيتعظوا، وينزجروا عما هم عليه

مقيمون عليه من الشِّرْك بالله وعبادة الأوثان وَكَانَ الإنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ مراءً وخصومةً، لا ينيب لحقّ، ولا ينزجر لموعظة.

وهنا يا إخوة في هٰذَا فائدة عظيمة وهي: أن نعلم إِنَّمَا اهتدينا بفضل الله، ما اهتدينا بسعةٍ في علومنا، ولا بقوةٍ في أفهامنا، ولا بشرفٍ فينا، وَإِنَّمَا اهتدينا بشرف الله عَزَّ وَجَلَّ، وَإِلَّا فإن الإنسان كثير الجدل يُبعِد نفسه عن الحق بكثرة المِراء -وَالعِيَاذُ باللهِ-، ويقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ [الروم: ٥٨].

ويقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧]، فالله عَزَّ وَجَلَّ أخبرنا أنه قد ضرب لنا في القرآن الأمثال، وأن في ضرب الأمثال معرفة الحق، والتذكر، وأن الجدال والهوى -وَالعِيَاذُ باللهِ- يمنعان العبد من الانتفاع بما ضربه الله عَزَّ وَجَلَّ من الأمثال، والمثل يأتي في القرآن بمعنى: الصفة، مثل قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ [الرعد: ٣٥]، يعني: صفة الجنة، وكذلك قول الله عز وجل: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ [الفتح: ٢٩]؛ يعني: تلك صفتهم في التوراة، بهذا وُصِفوا في التوراة.

فيأتي لفظ المثل في القرآن بمعنى: الصفة، ويأتي أيضًا بمعنى: التشبيه، فتُشبه المعاني الغائبة بمعاني محسوسة من أجل أن تُقرب إِلَىٰ الأذهان كما سيأتي إِنْ شَاءَ اللهُ في تَعْرِيْف الأمثال، وسنُبين أمثلةً عَلَىٰ هٰذَا إِنْ شَاءَ اللهُ عند الكلام عن: مقاصد الأمثال، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ما وقع في القرآن من أمثال الَّتِي لا يعقلها إِلَّا العالمون فإنها تشبيه شيءٍ بشيءٍ في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أَوْ أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدها بالآخر.

يعني: ما جاء في القرآن من الأمثال إِنَّمَا هو من باب: التشبيه، إِمَّا أنه تشبيه شيءٍ بشيء في حكمه، ويكون المقصود هنا: بيان لماذا اتفق هٰذَا مع هٰذَا في الحُكم، وَهٰذَا يسمى بالتشبيه القياسي، أَوْ يكون لتقريب أمرٍ معنوي غائب بأمرٍ محسوس يُعلَم ويُدرَك، أَوْ لتقريب أحد المحسوسين بمحسوسٍ آخر، واعتبار أَحَدُهُمَا بالآخر.

إِذًا المثل في القرآن يأتي بمعنى: الصفة، ويأتي بمعنى: التشبيه، والمراد بأمثال القرآن معنا هنا هو المعنى الْثَّانِي؛ وهو: التشبيه، وَلَا شَكَّ أن ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حكيم عليم لا يفعل شيئًا إِلَّا لحِكمه، ولا يشرَع شيئًا

إِلَّا لِحِكمه، وكلام ربنا كله حِكم، فضرب الأمثال في القرآن ليس للتسلية، وليس للبلاغة وَإِنَّمَا له حِكمٌ عظيمة، وَهٰذِه الحِكم قد بينها العلماء.

وبالرجوع إِلَىٰ كلام العلماء وما ذكره العلماء من مقاصد الأمثال أستطيع أن أقول: إن مقاصد ضرب الأمثال في القرآن تعود إِلَىٰ أربعة مقاصد، وَهٰذِه هي المقاصد العامة؛ لأن ضرب الأمثال في القرآن له مقاصد عامة، ومقاصد خاصة.

ونعني بالمقاصد العامة: المقاصد العامة في ضرب الأمثال كلها.

ونعني بالمقاصد الخاصة: ما يكون في كل مثال من حِكم تتعلق به.

أَمَّا المقاصد العامة فقد استقرأنا كلام أهل العِلم ونظرنا فيه.

ووجدنا أن ما فسروه من المقاصد العامة يرجع إِلَىٰ أربعة مقاصد:

المقصد الأول: اختبار القلوب، وتمييز القلوب الموقِنة المؤمنة الصادقة من القلوب المريضة المغتابة المُتشكِكة، وذلك أن القلب المؤمن الموقِن إِذَا سمع المثل أدرك أنه من الله، وأن له حِكمة، وأنه مُحكَم فيزداد إيمانًا سواءً ضرب الله المثل بشيءٍ حقير كالبعوض والذباب، أَوْ ضرب الله عَزَّ وَجَلَّ بشيءٍ مُكرم عند الناس كالغيث والشجرة الطيبة، كلها عند المؤمن لا تختلف.

بمجرد أن يسمع قلب المؤمن المثل يوقِن أن هٰذَا المثل من الله، وأن له شئنًا عظيمًا، وأنه مُحكَم، وأنه فيه حِكمًا عظيمة، أَمَّا القلب المريض فإنه إِذَا سمع المثل يتحير ويتشكك ويرتاب، قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

قيل: إن الله عَزَّ وَجَلَّ لما ضرب المثل بالذباب والبعوض ضحكت اليهود وقالوا: ما هٰذَا الكتاب الَّذِي يُضرب فيه المثل بالذباب، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ هٰذِه الآية ردًا عليهم، وبيانًا لفساد قلوبهم، وأنه لو كانت قلوبهم سليمة لقبِلوا هٰذِه الأمثال.

وقيل: إن المشركين لما ضرب الله عَزَّ وَجَلَّ المثل بالذباب قالوا: ما هٰذَا الإله الَّذِي يضرب المثل بالمُحقرات؛ بالذباب، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ هٰذِه الآية ردًا عليهم، والعِبرة: بعموم اللَّفْظ لا بخصوص السبب، فالشاهد: أن الآية دلت عَلَىٰ هٰذَا المقصد العظيم؛ وهو: أن الأمثال تُختبر بها القلوب.

وأما المقصد الثاني: فهو تقريب الغائب إِلَىٰ ذهن السامع حَتَّىٰ يكون كأنه مشاهد مع الإشارة إِلَىٰ شرف الغائب.

مثلًا يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ٢٢]، الحور: في الجَنَّة، وهن الحسناوات في غاية الحسن، عين أي: جميلات وواسعات العيون، فلما كانت أذهاننا لا تُدرِك حُسنهن وجمالهن إِلَّا بالتقريب بشيء قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٣]، إن سألت عن حُسنِهن الَّذِي ورد في كونهن حورًا وعينًا، فكأمثال اللؤلؤ، وَهٰذَا اللؤلؤ مكنون؛ أي: أنه في الأصداف.

فشبه الله عَزَّ وَجَلَّ جمالهن وحُسنهن وصفاء ألوانهن وبياضهن باللؤلؤ، وشبه أنهن لم يرهن أحد قبل الأزواج بالمكنون، فاللؤلؤ المكنون هو: الَّذِي في الأصداف لم تمسه يد، ولم يُجرَح، وهو باقٍ عَلَىٰ صفائه وجماله، وَقَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ أيضًا: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ۝٤٨ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٨-٤٩]، فشبه الله عَزَّ وَجَلَّ جمال الحور العين: بأنهن كأنهن بيضٌ مكنون.

وأصح أقول المفسرين هنا: أن الله عَزَّ وَجَلَّ شبه بياض الحور العين وشدة صفائه وأنه لم يُخدش ولم يُمَس: ببياض البيض من الداخل، ليس بياض القشرة من الخارج، وَإِنَّمَا بياض البيض من الداخل، ولذلك قَالَ: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٨-٤٩]، ما قَالَ: كأنهن بيض، والمكنون: هو الَّذِي في الداخل، فَهٰذَا تشبيهٌ لبياضهن وجمالهن.

وَقَالَ بعض المفسرين قولًا له وجاهة فقالوا: إن الله عَزَّ وَجَلَّ هنا شبه رِقة جلود الحور العين برِقة القِشرة الَّتِي تكون في داخل البيضة الَّتِي لو وضعت إصبعك عليها لشققتها، فرِقة جلود الحور العين كأنها هٰذِه القِشرة، أيضًا الله عَزَّ وَجَلَّ قَالَ عن الحور العين: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨]، كأن الحور العين الياقوت، في أي شيء؟ قال العلماء: في الصفاء.

فالياقوت حجرٌ لو أدخلت فيه خطيًا من الداخل لرأيت الخيط من شده صفاء الياقوت، فكذلك الحور العين، والمرجان فَقَالَ كثيرٌ من المفسرين: أي شبه الله حسن الحور العين بحسن المرجان، وبعض أهل العِلم

قَالَ: جمالهن صفاءٌ كالياقوت بياضٌ كالمرجان، وهنا حملوا المرجان ليس عَلَىٰ المرجان المعروف؛ لأن المرجان المعروف الَّذِي في الشُعب المرجانية وهكذا أحمر، لكن حملوا المرجان هنا عَلَىٰ أن المراد به اللؤلؤ.

فقالوا: صفاء الياقوت في بياض المرجان، عَلَىٰ أن المراد بالمرجان: اللؤلؤ، وبعض المفسرين قَالَ: صفاء الياقوت في حُسن المرجان، فإن المرجان فيه في المنظر جمال عجيب، ولذلك الناس يذهبون إِلَىٰ البحار ويغطسون في البحر من أجل أن ينظروا إِلَىٰ المرجان لشدة جماله وحُسنِه.

فالله عَزَّ وَجَلَّ هنا قرب لنا الغائب عن أذهاننا: بالتمثيل، والتشبيه، وعَلَىٰ كل حال المرأة المؤمنة إِذَا دخلت الجَنَّة خيرٌ من الحور العين، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن الأمثال: إنها لتقريب المراد وتفيهم المعنى، وإيصاله إِلَىٰ ذهن السامع، وإحضاره في نفسه بصورة المثال الَّذِي مُثِل به، فإنه قد يكون أقرب إِلَىٰ تعقله وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره.

وَهٰذَا الأمر يا إخوة أمر محبب إِلَىٰ النفوس؛ أن تُقرِب الشيء البعيد بشيءٍ قريب معلوم، ولذلك يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: فإن النفس تأنس بالنظائر والأشباه الأُنس التام، وتنفر من الغرفة والوحدة وعدم النظير؛ يعني من طبيعة النفس: أن النفس تنفر من الشيء الغريب الَّذِي لا يتضح لها.

يقول: ففي الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها، وانقيادها لما ضُرِب له مثل من الحق أمرٌ لا يجهله أحد ولا يُنكِره، إِذًا هٰذَا هو المقصد الْثَّانِي من مقاصد ضرب الأمثال.

المقصد الثالث: الترغيب في الأمور الحسنة، والتنفير من ضدها، فقد يضرب الله للأمر الحسن مثالًا يجعل الإنسان يرغب فيه، ويضرب للشيء السيء مثالًا يُنفِر الإنسان عنه، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ مثلًا: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝٢٤ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٥﴾ [إبراهيم: ٢٥].

هٰذَا المثل سيأتينا وسنقف معه إِنْ شَاءَ اللهُ، لكن ضرب الله لكلمة التوحيد مثلًا: وهو الشجرة الطيبة، هٰذِه الشجرة قَالَ بعض السَلَف: إنها شجر من أشجار الجَنَّة، وَقَالَ بعض السَلَف: إنها النخيل، وَهٰذَا الأصوب، وابن القيم جمع بينهما فَقَالَ: النخيل من أطيب شجر الجَنَّة؛ لأنه ثبت في الحديث أن النخيل من شجر الجَنَّة، بل ثبت أن الجَنَّة قِيعان؛ أي: أنها أراضٍ صالحة للزراعة، وأن المؤمن في الدنيا هو الَّذِي يغرسها

بذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإذا قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ غُرِست له شجرة أَوْ نخلة، وإذا قَالَ: الحَمْدُ للهِ غُرِست له شجرة أَوْ نخلة.

فعَلَىٰ كل حال ضرب الله للكلمة الطيبة ولكلمة التوحيد مثالًا: بالشجرة الطيبة، هٰذِه الشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، فهي سببٌ لعلو منزلة المؤمن؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ يرفعه، وثمارها عظيمة جدًا في الدنيا وَالآخرة، وَهٰذَا يُرغِب الإنسان في هٰذِه الكلمة الطيبة.

وَقَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦]؛ ضرب الله للكلمة الخبيثة: كلمة الشِّرْك مثلًا بشجرة خبيثة هي أصلًا في وصفها خبيثة، لو كانت الشجرة الخبيثة ثابتة قوية لنفر منها الإنسان، فكيف بالشجرة الخبيثة الضعيفة الَّتِي لا قرار لها، لا شك أن الإنسان ينفر منها نفُرًا عظيمًا.

والمقصد الرابع من مقاصد ضرب الأمثال: التَّفَكُّر وَالتَّدَبُّر والتذكر والفهم والاعتبار، يضرب الله عَزَّ وَجَلَّ لنا الأمثال ليتذكر ونتفكر ونتدبر ونفهم ونعتبر فنعمل، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الزمر: ٢٧]، ويقول عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، ويقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١].

وأمرنا الله أمرًا عامًا فَقَالَ: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]، فمن أعظم مقاصد ضرب الأمثال العامة: أن نتفكر فيها، وأن نتدبرها، وأن نفهمها، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: قد أخبر الله سُبْحَانَهُ أنه ضرب الأمثال لعباده في غير موضعٍ من كتابه، وأمر باستماع أمثاله، ودعا عباده إِلَىٰ تعقلها والتفكير فيها، والاعتبار بها، وَهٰذَا هو المقصود بها.

وقد أشار ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَىٰ هٰذِه المقاصد الأربعة في قوله: ضرب الأمثال في القرآن يُستفاد منه أمور: التذكير، والوعظ، والحس، والزجر، والاعتبار، وتقريب المراد للفعل، وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس للمحسوس، وقد تأتي أمثال القرآن مشتملة عَلَىٰ بيان تفاوت الأجر عَلَىٰ المدح والذم، وعَلَىٰ الثواب والعقاب، وعَلَىٰ تفخيم الأمر أَوْ تحقيره، وعَلَىٰ تحقيق أمرٍ وإبطال أمر.

أَمَّا المقاصد الخاصة فاليوم وغدًا سنختار أمثلة من أمثلة القرآن ونقف عند مقاصدها الخاصة، ننتقل إِلَىٰ نقطة وهي: خصائص الأمثال؛ فأول خصائص الأمثال: إيجاز اللَّفْظ، فالمثل مع قِصر ألفاظه يُغني عن الجمل الكثيرة؛ يعني: يؤدى المعنى الَّذِي يحتاج إِلَىٰ جملٍ كثيرة بعباراتٍ يسيرة بضرب المثل:

- **فالمثل من خصائصه:** إيجاز اللَّفْظ، ومعنى ذلك: أنه مُغنٍ عن الإطناب.
- **ومن خصائصه:** حسن التشبيه، فَلَا بُدَّ في المثل من حسن التشبيه، وَهٰذَا في كل مثل حَتَّىٰ في أمثال العرب، العرب تستقبح المثل إِذَا لم يكن التشبيه حسنًا، وجيدًا، وَلَا شَكَّ أن أمثال القرآن كلها فيها حسن التشبيه، فهي في غاية الإتقان.
- **والخصيصة الثَّالِثة:** جودة الكناية فإنه يُضمن المثل معاني يُكنى عنها بالمثال.
- **والخصيصة الرابعة:** إصابة المعنى.

هٰذِه خصائص الأمثال، قد يقول قائل: مَاذَا نحتاج لنفهم الأمثال، علمنا أن الأمثال لها مقاصد ولها خصائص، وأنه ينبغي أن نتدبرها فماذا نحتاج لكي نفهم الأمثال؟

نحتاج إِلَىٰ أمور:

☜ **الأمر الْأَوَّل:** نحتاج للقلوب العاقلة، الحاضرة، الشاهدة، وللأسماع المُصغية، فلا يمكن أن تفهم شيئًا إِلَّا إِذَا كان لك قلبًا حاضر، فكلنا لنا قلوب، لكن الشأن: كيف هٰذَا القلب؟ هل هو قلبٌ حاضر، أَوْ قلبٌ غائب.

ولذلك يا أحبة من أعظم ما يحرص عليه الشيطان في صرف طلاب العِلم عن العِلم أن يصرف قلوبهم، قد تُتعِب الشيطان بإصرارك عَلَىٰ أن تحضر الدرس، ويعجز عَلَىٰ أن يثنيك، لكنه يمكر بك من جانب آخر فإذا جلست في الدرس غيب قلبك، فجاءك يوسوس لك بأشياء حَتَّىٰ تغيب؛ لأنه إِذَا غاب القلب انتفى الفهم.

فَلَا بُدَّ من قلوبٍ عاقلة حاضرة شاهدة، وأسماعٍ مُصغية، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، فلا يمكن أن تتذكر أَوْ تعتبر ما في القرآن أَوْ تفهم ما في القرآن إِلَّا إِذَا انتبهت لهذا، إِذَا جئت تقرأ القرآن حَتَّىٰ تفهم وتتدبر فقرأ وقلبك حاضر، أَمَّا أن تقرأ ولسانك يتحرك وقلبك في جهةٍ أخرى وفي ناحية أخرى فإنك لن تفهم ما تقرأ وما تقول، فَلَا بُدَّ من قلب يجاهده صاحبه بإحضاره، وسمعٍ يُصغي به الإنسان.

قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١]، والألباب هي: العقول، والعقول في الحقيقة في القلوب، وإن كان الصحيح أن لها أتصالًا بالمخ، تعرفون أن العلماء اختلفوا في محل العقل هل هو الرأس أَوْ القلب؟ والصحيح: أن محل العقل هو القلب، لكن لهذا القلب من حيث الفهم وَالتَّدَبُّر اتصالٌ بالمخ والرأس.

☜ **وثاني الأمور الَّتِي نحتاجها لنفهم الأمثال:** العِلم، فإن الأمثال تحتاج إِلَىٰ عِلم حَتَّىٰ تُفهم، فنحتاج أن نتعلم، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، هنا بعض أهل العِلم ذكروا شيئًا لطيفًا فقالوا: أن الإنسان يختبر علمه بأمثال القرآن، يختبر هل هو عالم أَوْ عِلمه نافع أَوْ غير نافع بأمثال القرآن فإن كان يعقل الأمثال فَهٰذَا دليل عَلَىٰ: أنه عِلمه نافع وأن طريقه في طلب العِلم صحيح، وإن كان لا يعقل الأمثال فَهٰذَا دليل عَلَىٰ: ضعف علمه.

ولذلك ذُكِر عن بعض السَلَف أنه قرأ مثالًا في القرآن فلم يفهمه فبكى وَقَالَ: أنا ما عالم؛ لأنه لم يفهم مثال القرآن، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: إن الله عَزَّ وَجَلَّ سُبْحَانَهُ أخبر عن أمثاله الَّذِي يضربها لعباده يدلهم عَلَىٰ صحة ما أخبر به: أن أهل العِلم هو المُنتفعون بها، المختصون بعِلمها.

❍ **إِذًا هٰذَا يفيدنا أمرين:**

☚ **الأمر الْأَوَّلُ:** أننا بحاجة إِلَىٰ العِلم حَتَّىٰ نفهم الأمثال، ونفهم القرآن كله

☚ **الأمر الثَّانِي:** بحاجة إِلَىٰ العلماء، وأن نُزاحِم العلماء بالرُكب فإننا لن نفهم القرآن بفهم مقاصده إِلَّا بمزاحمة العلماء.

✪ **وبالمناسبة العلماء يقولون: فهم القرآن نوعان:**

❶ **النوع الْأَوَّلُ:** فهمٌ عام، تقوم به الحُجة عَلَىٰ العباد، وَهٰذَا حاصلٌ لكل من قرأ القرآن بالعربية أَوْ تُرجِمت له المعاني بغير العربية، هٰذَا الفهم العام لمعاني القرآن الَّذِي تقوم به الحُجة عَلَىٰ الإنسان يحصل لكل مَن يقرأ القرآن بالعربية، كل من يفهم العربية ويقرأ القرآن يفهم هٰذَا المعنى، ما يحتاج إِلَىٰ كثير من العلوم، ويمكن أن تُترجم معانيه إِلَىٰ: الإنجليزية، الفرنسية، الألمانية، فإذا تُرجِمت وقُرِأت يُفهم القرآن فهمًا تقوم به الحُجة.

بمعنى يا إخوة: لو أننا جئنا إِلَىٰ إنسان إنجليزي مثلًا ما يفهم العربية وقرأنا عليه القرآن كله ما تقوم عليه حُجة؛ لأنه لا يفهم العربية، لكن لو ترجمنا معاني القرآن إِلَىٰ الإنجليزية وقرأها، أَوْ أسمعناه هٰذِه المعاني تقوم عليه الحُجة.

❷ والنوع الثَّانِي: فهم مقاصد القرآن، وحِكمه الدقيقة، ودلالاته الكثيرة، وَهٰذَا لا يكون إِلَّا بالعربية، لا توجد لغة في الدنيا تتحمل معاني القرآن الدقيقة، وَإِنَّمَا تتحمل المعنى العام للقرآن، أَمَّا دقائق المعاني ودقائق التشبيهات الَّتِي في اللغة العربية لا يمكن أن توجد في غير العربية، ولذلك الَّذِي يُترجَم من القرآن: المعنى العام، أَمَّا اللَّفْظ فلا يمكن أن يُترجَم، لو ترجمت القرآن بترجمة الألفاظ لوقعت في الخطأ فلا يمكن أن يُترجم القرآن بلفظه.

ولا يمكن أن تُترجم المعاني الدقيقة للقرآن وَإِلَّا احتاجت إِلَىٰ كتبٍ كثرة، فَهٰذَا أولًا لا يُفهم إِلَّا لَمن قرأه بالعربية، وثانيًا: لَا بُدَّ فيه من عِلم، لَا بُدَّ أن يكون عند الإنسان عِلم في أصول الفقه، وفي أصول التفسير وقواعد التفسير حَتَّىٰ يفهم القرآن فهمًا دقيقًا.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، قَالَ: وفي القرآن بِضعة وأربعون مثلًا، ذَكَرَ بعض أهل العِلم: أنها ثلاثة وأربعون مثلًا، لكن الَّذِي صُرِح به بالمثل في القرآن أربعون مثلًا، قَالَ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وكان بعض السَلَف إِذَا مر بمثل لا يفهمه يبكي ويقول: لست من العالمين.

وثالث الأمور الَّتِي نحتاجها حَتَّىٰ نفهم الأمثال: التَّفَكُّر وَالتَّدَبُّر، وأن نتفكر في الأمثال وأن نتدبر في معانيها، ولا نمر بها مرورًا سريعًا، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، فلا يُفهم المثال فهمًا دقيقًا صحيحًا نافعًا إِلَّا بطريق التَّفَكُّر وَالتَّدَبُّر.

فَهٰذِه الأمور الثلاثة نحتاجها في فهم أمثال القرآن، ونحن كما قلت لكم أحبتي في الله سنأخذ بعض أمثال القرآن ونقف معها بحسب ما يتيسر في الوقت اليوم وغدًا إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يكتب لنا أجرها، وَهٰذَا في الحقيقة إِنَّمَا هو عَلَىٰ سبيل التمثيل، وأنا أقول لكم يا إخوة: من أحسن مَن تكلم عن أمثله القرآن بلاغةً وبيانًا الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

فإنه في إعلام الموقعين تعرض لأكثر أمثلة القرآن وذكر زُبدة ما يذكره المفسرون بأسلوب ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عالمٌ متقدمٌ في زمانه كأنه يعيش معنا في بيانه، أسلوب ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أسلوب رائع وقريب من الفهم مع قوته وجزالته وبلاغته، ولذلك أنا أنصح الإخوة بالرجوع إِلَىٰ كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في أمثال القرآن.

وأنا قد جمعت لكم شيئًا من كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ وكلام الشيخ ابن سِعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في الأمثال الَّتِي نذكرها، ونبدأ بهذا المثال الَّذِي قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ فيه: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٧-٢٠].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ضرب الله للمنافقين بحسب حالهم مثالين: مثلًا ناريًا، ومثلًا مائيًا، وهما من حيث الواقع ضدان؛ أعني: الماء وَالنَّار، فضرب الله للمنافقين بحسب حالهم مثالين، يأتي شخص ويقول: الله عَزَّ وَجَلَّ ضرب لهم مثالًا ناريًا وضرب لهم مثالًا مائيًا وهما ضدان؛ النَّار ضدها الماء فلماذا؟

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: لما في النَّار والماء من الإضاءة، والإشراق، والحياة، فهو الَّذِي جمع بين الماء وَالنَّار، كيف هذَا؟ يقول: فإن النَّار مادة النور، والماء مادة الحياة، وقد جعل الله سُبْحَانَهُ الوحي الَّذِي أنزله من السماء متضمن لحياة القلوب واستنارتها، ولهذا سماه: روحًا ونورًا، وجعل قالبيه أحياء في النور، ومَن لم يرفع به رأسًا أمواتًا في الظلمات.

وأخبر عن المنافقين بالنسبة إِلَىٰ حظهم من الوحي وأنهم بمنزلة مَن استوقد نارًا، لماذا يوقِد الإنسان النَّار؟ لينتفع بها ويستضيء؛ ليجعل منها نورًا ولينتفع بها، قَالَ: وأنه بمنزلة مَن استوقد نارًا ليضيء له وينتفع بها، وَهذَا لأنهم دخلوا في الإسلام فاستضاءوا به وانتفعوا به، وخالطوا المسلمين، لكن لما لم يكن لِصُحبتهم مادةً من قلوبهم من نور الإسلام طفئ عنهم، وذهب الله بنورهم، ولم يقُل: بنارهم.

لماذا؟ **يقول:** فإن النَّار فيها الإضاءة والإحراق، انظر دقة كلام العلماء، يقول: فذهب الله بما فيها من الإضاءة وهو النور، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق، فإنهم في الدرك الأسفل من النَّار، فما قَالَ الله: ذهب

الله بنارهم فيسلموا حَتَّىٰ من إحراقها، فَقَالَ: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧]؛ ذهب بالنفع وبقي الإحراق.

قَالَ: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]، قَالَ: فَهٰذَا حال من بصُر ثُمَّ عمي، وعرف ثُمَّ أنكر، وَهٰذَا في الحقيقة يُضرب مثلًا لكل من عرف الحق ثُمَّ نكس عنه، الَّذِي يعرف منهج السَلَف الصالح ومدى جماله، ومدى صفائه، ومدى حُسنِه، ومدى كماله، ثُمَّ ينكُس عن هٰذَا -وَالعِيَاذُ باللهِ- ويذهب عن الأفكار ذات اليمين وذات الشمال يصلُح هٰذَا مثلًا له؛ لأنه رأى الضوء والنفع ثُمَّ تركه وعمي عن الهدي بعد أن رآه.

قَالَ: ولهذا قَالَ: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، ثُمَّ ذَكَرَ حالهم بالنسبة إِلَىٰ المثل المائي فشبههم بأصحاب صيب؛ وهو: المطر الَّذِي يصوب؛ أي: ينزل من السماء فيه ظلماتٍ ورعدٍ وبرق، فلضعف بصائرهم وعقولهم اشتدت عليهم زواجر القرآن، ووعيده وتهديده وأوامره ونواهيه وخطابه الَّذِي يُشبه الصواعق.

إِذًا حال المنافقين مع القرآن كحال مَن أصابه مطر فيه ظُلمة ورعد وبرق، فلضعفه وخوره جعل إصبعيه في أذنيه، وأغمض عينيه خشية من صاعقة تصيبه، فكذا المنافقون مع القرآن أغلقوا آذانهم وأبصارهم فلم ينتفعوا بما في القرآن، ويقول الشيخ بن سِعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: مثل المنافقين المطابق لما كانوا عليه كمثل الَّذِي استوقد نارًا؛ أي: كان في ظلمة عظيمة، يقول: أي أنه كان في ظلمة عظيمة وحاجةٍ إِلَىٰ النَّار شديدة فستوقدها من غيره، ولم تكن عنده مُعدة بل هي خارجة عنه.

لم يُقِد وَإِنَّمَا استوقد، الألف والسين والتاء إِذَا جاءت تدل عَلَىٰ الطلب؛ أي: طلب إيقادها، فلم تكن مادتها عنده، وَإِنَّمَا طلب من غيره أن يُقِدها، فلما أضاءت النَّار ما حوله ونظر المحل الَّذِي هو فيه وما فيه من المخاوف وأمنها، وانتفع بتلك النَّار، وقرت بها عينه، وظن أنه قادر عليها، فينما هو كذلك إِذَ ذهب الله بنوره، فذهب عنه النور وذهب معه السرور، وبقي في الظلمة العظيمة وَالنَّار المُحرِقة، فذهب ما فيها من الإشراق وبقي ما فيها من الإحراق، فبقي في إحراقٍ وظُلمة.

قَالَ: فبقي في ظلماتٍ متعددة؛ ظلمة اَللَّيْل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، والظلمة الحاصلة بعد النور فكيف يكون حال هٰذَا الموصوف، فكذلك هؤلاء المنافقون استوقدوا نار الإيمان من المؤمنين، وَهٰذَا ملمح

لطيف جدًا أن المنافقين لم يدخل الإيمان في قلوبهم، وَإِنَّمَا استوقدوا نور الإيمان من المؤمنين ولم تكن صفة لهم، فانتفعوا بها.

هل انتفع المنافقون بالإيمان؟

نعم انتفعوا بالإيمان، ما هو نفعهم بالإيمان؟ أنهم عُمِلوا معاملة المسلمين فلم يقتلوا، وحُقِنت دمائهم، ولكن جزائهم: أنهم في الدرك الأسفل من النَّار، ولذلك يقول الشيخ بن سِعدي رَحِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: فانتفعوا بها وحُقِنت بذلك دمائهم وسلِمت أموالهم، وحصل لهم نوعٌ من الأمن في الدنيا.

فبينما هم عَلَىٰ ذلك إذ هجم عليهم الموت فسلبهم الانتفاع بذلك النور، وحصل لهم كل همٍ وغم، وحصل لهم ظلمة القبر وظلمة الكفر، وظلمة النِّفَاق، وظُلَم المعاصي عَلَىٰ اختلاف أنواعها، وبعد ذلك ظُلمة النَّار وبئس القرار.

-وَالعِيَاذُ باللهِ-: أنهم يكونوا في الدنيا في ظُلَم وفي الآخرة في ظُلَم، قَالَ: ولهذا قَالَ تَعَالَىٰ عنهم: ﴿صُمٌّ﴾ [البقرة: ١٨]؛ أي: عن سماع الخير، ﴿بُكْمٌ﴾ [البقرة: ١٨]؛ أي: عن النُطق به، ﴿عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨]؛ أي: عن رؤية الحق، ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]؛ لأنهم قد تركوا الحق بعد أن عرفوه، فلا يرجعون إليه بخلاف من ترك الحق عن جهلٍ وضلال فإنه أقرب رجوعًا منهم.

نعوذ بالله من أن نزل بعد العِلم، وأن نضل بعد العِلم، فإن ظُلمة الانتكاسة عن الحق أشد من ظُلمة الجهل، ولذلك يا إخوة الله مَنَ علينا بالهداية، ومَنَ عليها بِالسُّنَّةِ والتوحيد، ومَنَ علينا بطلب العِلم فينبغي أن نشكر الله عَلَىٰ هٰذِه النِعمة وأن نحفظها، وأن نحذر أيما حذر من أن نُفرِط فيها أَوْ نتكاسل.

ولذلك يقول بعض أهل العِلم: إن التارِك للحق بعد أن عرفه كالمنحدر من جبل، ولا يملك نفسه، ولذلك من واقع التجارب عند أهل العِلم يقولون: إن الإنسان الَّذِي يسقط من الحق إِلَىٰ الباطل يكون أكثر شرًا ممَن لم يعرف الحق أصلًا، فينبغي أَيُّهَا الإخوة أن نحذر وأن نخاف عَلَىٰ أنفسنا، ونشكر الله عَلَىٰ هٰذِه النِعمة، ونتعاون فيما بيننا عَلَىٰ الثبات والحق، فإن هٰذَا من أعظم ما ينبغي علينا.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩]؛ أي: كصاحب صيبٍ من السماء وهو: المطر الَّذِي ينزل بكثرة فيه ظلماتٌ؛ ظُلمة اَللَّيْل، والسحاب، وظلمات المطر، ورعدٌ وهو: الصوت

الَّذِي يُسمع في السحاب، وبرقٌ وهو: الضوء اللامع المُشاهد مع الذهاب، كلما أضاء لهم البرق في تلك الظلمات مشوا فيه.

﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ٢٠]، فَهٰذَا حال المنافقين إِذَا سمعوا القرآن وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده هل يستمعون لا، بل جعلوا أصابعهم في آذانهم، وبعض الناس يجعلون أصابعهم في آذانهم جعلًا معنويًا فإذا سمعوا القرآن لا يسلمون له ولا يفرحون به، وَإِنَّمَا الحق عندهم ما وافق أهوائهم، وإذا سمعوا آية لا توافق أهوائهم أعرضوا عنها، كأنهم يضعون أصابعهم في آذانهم.

حَتَّىٰ أن أحد الصوفية الغُلاة لما قُرِأت عليه آية في التوحيد قَالَ: هٰذِه آية وهابية، كلام الله عَزَّ وَجَلَّ ما وقف عنده، وما سمع ما أصغى، ما اهتدى ما رجع، وَهٰذَا من أعظم الشر الَّذِي يصيب الإنسان، الموفق من عباد الله الَّذِي وَفَّقَهُ اللهُ للوقوف عند الهدى للفرح بالآيات وللفرح بالأحاديث، بل إن المؤمن الحق الصادق إِذَا جاءه ناصحٌ فنصحه يفرح بنصيحة أخية فرحًا عظيمًا، بل إِذَا جاءه شخص فأنكر عليه مُنكرًا وتبين له أنه مُنكر يفرح؛ لأن هٰذَا يدله عَلَىٰ الهدى.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: فهكذا حال المنافقين إِذَا سمعوا القرآن وأوامره ونواهيه، ووعده ووعيده جعلوا أصابعهم في آذانهم، وأعرضوا عن أمره ونهيه، ووعده ووعيده فيروعهم وعيده، وتُزعِجهم وعوده فهم يُعرِضون عنها غاية ما يمكنهم، ويكرهونها كراهة صاحب الصيب الَّذِي يسمع الرعد، ويجعل أصابعه في أذنيه خشية الموت، فَهٰذَا تمكن له السلامة ويمكن أن يسلَم، وَأَمَّا المنافقون فأنا لهم السلامة، وهو تَعَالَىٰ مُحيطٌ بهم قدرة وعِلما فلا يفوتونه ولا يُعجِزونه، بل يحفظ عليهم أعمالهم ويُجازيهم عليها أتم الجزاء.

فانظر هٰذَا المثل لحال المنافقين مع ما فيه من الحكم والفوائد للمؤمنين، هو مثال لحال المنافقين ويبين حالهم، ولكن المؤمن ينتفع به ويستخرج منه الحِكم، ويُنير طريقه بالحِكم الَّتِي يستخرجها من هٰذَا المثل العظيم، أيضًا من أمثال القرآن مثلًا عظيم يشوق النفوس إِلَىٰ عمل الخير ويُقرِبها من ذلك، قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

ويقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ

أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦٥-٢٦٦].

هٰذَا تشبيهٌ عظيم لَمَن يُنفق ماله في سبيل الله، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: شبه سُبْحَانَهُ نفقه المُنفق في سبيله سواءٌ كان المراد به الجهاد أَوْ جميع سُبل الخير من كل بِرٍ بمَن بذر بذرًا فأنبتت كل حبةً منه سبع سنابل واشتملت كل سُنبلةٍ عَلَىٰ مائة حبة، والله يضاعف لَمَن يشاء، بحسب حال المُنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه ونفع نفقته وقدرها، ووقوعها موقعها.

يعني: أن الله جعل للمُنفِق في سبيله مثلًا كمَن بذر بذرًا فأنبتت كل حبة من هٰذَا البذر سبع سنابل، وكل سُنبلة فيها مائة حبة، إِذًا الحبة جاءت بسبعمائة حبة، وفوق ذلك الله يُضاعف لَمَن يشاء بحسب ما يقوم في حال الإنفاق؛ يعني: من المعلوم أن إنفاق الإنسان هو صحيحٌ شحيحٌ يخشى الفقر ويأمل الغنى ويأمل البقاء في الحياة أعظم أجرًا من نفقته إِذَا تقدم به السن، وأدبر عن الدنيا وأقبل عَلَىٰ الآخرة، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ: فالمنفق ماله الطيب لله لا لغيره باذرٌ ماله في أرضٌ ذكية فمُغِله بحسب بذره وطيب أرضه، ما فائدة هٰذَا المثال؟ فلماذا لم يقل الله عَزَّ وَجَلَّ: له سبعمائة حسنة؟ فائدة هٰذَا المثال: أن الأجر في النفقة يتفاوت فكما أن الأراضي تتفاوت، تجد هٰذِه الأرض تُزرع فتُخرِج نبتًا، وهٰذِه تُزرع فتُخرِج نبتًا، لكن هٰذِه أطيب من هٰذَا، مع أن الأرض متجاورة.

ولذلك اسمع مَاذَا يقول ابن القيم فيما تنبه له من المثل فيقول: المُنفق ماله الطيب لله لا لغيره باذرٌ ماله في أرضٍ زكيه فمُغِله بحسب بذره، إِذًا ذلك البذر الطيب فالزرع طيب، وإذا بخِلت في البذر الَّذِي تبذره يخرج الذرع بمقدار ما تبذر، يقول: وتعاهد البذر بالسقي ونفي الدغل والنبات الغريب عنه.

فإذا كان الإنسان بذر بذرًا وأهمله وتركه ما يخرج نباتًا طيبًا، لكن إِذَا أهتم به وأوصل إليه الماء بحساب، وأزال عنه الأعشاب الضارة فإنه ينمو، فكذلك المتصدق يقول: فإذا اجتمعت هٰذِه الأمور ولم تُحرِق الزرع نارٌ ولا لحِقته جائحةٌ جاء أمثال الجبال، وكان مثله كمثل جنةً بربوة؛ وهي: المكان المرتفع الَّذِي تكون الجَنَّة فيه نُصب الشَّمْس والرياح فتتربى الأشجار هناك أتم تربية.

⮜ لماذا ذَكَرَ الله عَزَّ وَجَلَّ الربوة؟

لأن الربوة فيها أسباب الزراعة الحسنة كما ذَكَرَ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: فنزل عليها من السماء مطرٌ عظيم متتابع فرواها ونماها فآتت أُكُلها ضعفي ما يؤتيه غيرها بسبب ذلك الوابل، فإن لم يُصيبها وابلٌ فطل؛ أي: مطرٌ صغير القطر يكفيها لكرم منبتها، يزكوا عَلَىٰ الظل وينموا عليه.

قَالَ: فمن الناس مَن يكون إنفاقه وابلًا فيكون نبته أطيب، ومنهم مَن يكون إنفاقه طلًا؛ أي: قليلًا فيأتيه من الخير بمقدار ما أنفق، والله لا يُضيع مثال ذره، فإن عرض لهذا العامل ما يُغرِق أعماله ويُبطِل حسناته كان بمنزلة رجلٍ له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار، ﴿لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾[البقرة: ٢٦٥-٢٦٦].

فإذا كان يوم استيفاء الأعمال وإحراز الأجور وجد هٰذَا العامل عمله قد أصابه ما أصاب صاحب هٰذِه الجَنَّة، فحسرته حِيْنَئِذٍ أشد من حسرة هٰذَا عَلَىٰ جنته؛ يعني: الَّذِي يُنفق رياءً ليُقال: هو كريم، فأنفق ماله وأذهب ماله فإذا جاء يوم القيامة لم يجد إلَّا الخِزي والعار، وراء الله به وقيل له: إنَّما تصدقت ليُقال: كريم وقد قيل، فيؤمر به فيُسحب عَلَىٰ وجهه حَتَّىٰ يُلقى في النَّار.

وَالَّذِي يُنفق ماله ويُلحقه بالمَن والأذى ويمُن عَلَىٰ الفقير وأنه أعطاه، ويؤذيه، فيُنفق ماله في الدنيا لكنه يأتي يوم القيامة وهو في أشد الحاجة إِلَىٰ الحسنات فلا يجد شيئًا، يقول: فَهٰذَا مثلٌ ضربه الله سُبْحَانَهُ في الحسرة لسلب النِعمة عند شدة الحاجة إليها مع عِظم قدرها ومنفعتها، وَالَّذِي ذهبت عنه قد أصابه الكِبر والضعف فهو أحوج ما كان إِلَىٰ نعمته.

يعني: عندما ذهبت كان في حال الكِبر والضعف، ومع ذلك فله ذُرية ضُعفاء لا يقدرون عَلَىٰ نفعه، وهم بحاجة إِلَىٰ أن ينفعهم، بل هم في عياله فحاجته إِلَىٰ نعمته حِيْنَئِذٍ أشد ما كانت لضعفه وضعف ذريته، فيكون حال هٰذَا إِذَا كان له بستانٌ عظيم فيه من جميع الفواكه والثمر، وسلطان ثمره أجل الفواكه وأنفعها وهو: ثمر النخيل والأعناب، فمُغله يقوم بكفايته وكفاية ذريته، فأصبح يومًا وقد وجده مُحترِقًا كالصريم.

فأي حسرةٍ أعظم من حسرته، قَالَ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هٰذَا مثل الَّذِي يُختم له بالفساد في أخر عمره، يعيش طوال عمره ربما عَلَىٰ خير في الظاهر، لكن يوجد فساد في القلب، فإذا كان في أخر عمره ختم الله عَزَّ وَجَلَّ له بسوء الخاتمة، فَهٰذَا مثله كمثل هٰذَا الرجل الَّذِي ذكره الله عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَالَ مجاهد: هٰذَا مثل المُفرِط في طاعة الله حَتَّىٰ يموت فهو كان في الطاعة يستطيع أن يُطيع الله، ويستطيع أن يقوم اَللَّيْل، ويستطيع أن يقرأ القرآن، ويستطيع أن يصوم، لكنه فرط حَتَّىٰ مات، ومعلومٌ أن الإنسان يوم القيامة يكون بحاجة عظيمة إِلَىٰ الحسنات.

وَقَالَ السُدي: هٰذَا مثل المُرائي في نفقته الَّذِي يُنفق لغير الله ينقطع عنه نفعها أحوج ما يكون إليه، وسأل عمر ابن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصحابة يومًا عن هٰذِه الآية فَقَالَ: واللهُ أَعْلَمُ، طبعًا هم عرب ويفهمون معناها، لكن أرادوا أن يعرفوا ما عند عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: واللهُ أَعْلَمُ، فغضب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَالَ: قولوا نعلم أَوْ لا نعلم، فَقَالَ ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَ: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين؛ يعني: أفهم منها.

قَالَ: فقل يا ابن أخي ولا تُحقر نفسك؛ لأن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان صغير السن وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُدخِله مع كِبار الصحابة رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِم، سُبْحَانَ الله الصحابة زكت قلوبهم، كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُدخِل عبد الله بن العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في مجلسه مع كِبار الصحابة، ولا يُدخِل ابنه ابن عمر، وكان يُدخِل الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع كبار الصحابة ولا يُدخِل ابن عمر.

فَقَالَ له عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هٰذَا: حَتَّىٰ يكون جدك كجده؛ جده رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابة زكت قلوبهم وكان بينهم من الحب الشرعي والتعظيم الشرعي الشيء الكثير.

الشاهد: قَالَ قل يا ابن أخي ولا تُحقِر نفسك، وَهٰذَا ينبه في العلماء إِلَىٰ أن: المعلم ينبغي عليه أن يشجع طلابه ولا يُحقِرهم، قَالَ: ضرب مثلًا لعمل فَقَالَ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لأي عمل؟ قَالَ: لرجلٍ غنيٍ يعمل بالحسنات ثُمَّ بعث الله له الشيطان فعمِل بالمعاصي حَتَّىٰ أغرق أعماله كلها.

يعني -وَالعِيَاذُ بِاللهِ-: خُتِم له بالشر، ولعب له الشيطان، وأصبح يعصي الله عَزَّ وَجَلَّ حَتَّىٰ أغرق أعماله وحسناته بالسيئات، وَقَالَ الحسن: هٰذَا مثلٌ قل والله مَن يعقله من الناس، شيخٌ كبيرٌ ضعُف جسمه وكثُر صبيانه أفقر ما كان إِلَىٰ جنته، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إِلَىٰ عمله إِذَا انقطعت عنه الدنيا.

بمعنى: أن الحسن فهِم من المثال: أن الله عَزَّ وَجَلَّ ضرب هٰذَا المثل لحاجة الإنسان لعمله عند انقطاعه من الدنيا كحاجة هٰذَا الرجل عند كِبر سِنه لزرعه، إِذًا أنت يا عبد الله تزرع في الدنيا وأنت في حاجة

إِلَىٰ هٰذَا الزرع وَهٰذَا الزرع عند انقطاعك عن الدنيا وإقبالك إِلَىٰ الآخرة حاجة شديدة جدًا كحاجة هٰذَا الرجل إِلَىٰ زرعه.

فَهٰذَا بيانٌ عظيم من شيخ الإسلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ لهذا المثل، وله كلامٌ آخر حول هٰذَا المثل فيه فوائد كثيرة لكن الوقت لا يكفي لنقف مع جميع الفوائد، لكن أنا أريد أن أشوقكم إِلَىٰ ما يستنبطه العلماء من أمثال القرآن، وما في أمثال القرآن من الحِكم، وتنوع كلام العلماء للمثال، وكلها تصلح.

وما ذكرناه الآن من أقول هٰذَا ما يسميه العلماء: بخلاف التنوع ليس خلاف تضاد، وَإِنَّمَا خلاف تنوع، فكلها صالحة وكلها صحيحة، لعلنا نقف هنا لنعطي الإخوة فرصة ليرتاحوا قبل المغرب، ثُمَّ بعد المغرب إِنْ شَاءَ اللهُ نجلس المجلس الْثَّانِي، واللهُ أَعْلَمُ.

وَصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا وَسَلَّمَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ، الحَمْدُ للهِ حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يُحب ربنا ويرضىٰ، الحَمْدُ للهِ حَتَّىٰ يرضىٰ، وَالحَمْدُ للهِ عند الرضا، وَالحَمْدُ للهِ بعد الرضا، وَالحَمْدُ للهِ علىٰ كل حال، ونعوذ بالله من حال أهل النار، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ الواحد القهار، وأشهد أن مُحَمَّدًا عبده ورسوله النَّبِيّ المختار صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أظلم ليلٌ أَوْ أضاء نهار، ورضي الله عَنْ آله الأطهار وصحابته الكرام الخِيار.

أَمَّا بَعْدُ؛

فمعاشر الإخوة والأخوات! يا مَنْ اجتمعتم في مجلسٍ من مجالس القرآن أبشروا وأمِلوا فإن الخير معقودٌ بمثل هَذِه المجالس لِمَنْ رزقه الله عَزَّ وَجَلَّ حُسن النية.

نواصل الوقفات المتدبرات مع (أمثال الْقُرْآنِ)، نتفكر فيها ونتدبرها ونتذكر بها.

وقبل أن نشرع في عرض بعض أمثال القرآن نُجيب عَنْ هذا السؤال، وَهُوَ سؤالٌ طيب، فإن الأخ كأنه يقول: ...

السؤال: ذكرتم أن الأمثال تُقَرب بها المعاني إلى العقول بأمورٍ محسوسة، فكيف تقولون فيما كان التمثيل فيه مُمَثلًا بشيءٍ غير معلومٍ لنا، بشيءٍ غير محسوس: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥] طيب نحن مَا نعرف رؤوس الشياطين؟

الجواب: نقول: انظر إلى المقصود من المثال، مَا المقصود من المثال؟ المقصود: بيان قُبحِ هذا الطلع، والمستقر في نفوس الناس أن رؤوس الشياطين في غاية القُبح، فهم وإن لم يروها لكن المستقر في نفوسهم أن غاية القُبح هو رؤوس الشياطين، فبُين قُبح طلعها بأقبح مَا يعلمه الناس في نفوسهم وإن لم يروه وَهُوَ رؤوس الشياطين؛ فهذا ظاهرٌ بَينٌ هنا.

إذًا يا إخوة! إذا أردنا أن ننظر في المثل من القرآن فلننظر إلى مقصوده فإنَّا نجد أن المُشَبه به يحقق المقصود في غاية الإحكام وغاية الإتقان.

ثُمَّ نواصل الوقفات مع (أمثال الْقُرْآنِ):

ونبدأ بقول ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٦، ١١٧].

هذا المثل العظيم ضربه الله عَزَّ وَجَلَّ للكفار في إنفاقهم أموالهم: أن الكافر وَهُوَ يُنفِق أمواله في هَذِه الحياة الدنيا حاله كحال مَنْ زرع زرعًا يرجو خيره فمرت به ريحٌ فيها بردٌ شديد، والمعلوم أن الريح الشديدة مع البرد الشديد تُحرِق الزروع، فتُحرِق زرعه فلا ينتفع به ويتحسر على ذلك غاية التحسر.

يقول العُلماء: ويُلحَق بهذا مَنْ يُنفِق مَالَهُ لنُصرة باطل حتى لو لم يكن كافرًا، الذي يُنفِق مَالَهُ لنُصرة باطل أَوْ لدفع حقٍ أَوْ بغرضٍ فاسد كأن يُنفِق مَالَهُ ليقال: إنه جَواد، أَوْ ليُمدَح على الإنفاق؛ فيكون مُرائيًا فإن إنفاقه يكون مثله هذا المثل؛ فيكون كمَنْ زرع زرعًا وقبل أن يستحصد جاءت آفةٌ فأحرقته وأذهبت فائدته، ولا شك أنه عند ذلك سيستحسر على مَا أنفق.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في حِكم هذا المثل: (هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لمَنْ أنفق مالَهُ في غير طاعته ومرضاته فشبه سُبحانه مَا ينفقه هؤلاء من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحُسن الذِكر لا يبتغون به وجه الله، وما ينفقونه ليصدوا به عَنْ سبيل الله واتباع رُسُله بالزرع الذي زرعه صاحبه يرجو نفعه وخيره فأصابته ريحٌ شديدة البرد جدًّا يُحرِق بردها مَا يمر عليه من الزرع والثمار فأهلكت ذلك الزرع وأيبسته).

ثم أشار ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ إلىٰ فائدة في هَذِه الآيات، قال: (وفي قوله: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٧] تنبيهٌ على أن سبب إصابتها لحرثهم هو ظلمهم، فمَنْ أنفق في ظلم فإن هذا مَثله).

وقال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ: (ضرب الله مثلًا لما ينفقه الكفار من أموالهم التي يصدون بها عَنْ سبيل الله ويستعينون بها على إطفاء نور الله بأنها تبطل وتضمحل كمَنْ زرع زرعًا يرجو نتيجته ويُأمِل

إدراك ريعه؛ فبينما هو كَذَلِكَ إذ أصابته ريحٌ فيها صِرٌ) أي: بردٌ شديدٌ مُحرِق (فأهلكت زرعه ولم يحصل لَهُ إلَّا التعب والعناء وزيادة الأسف) هذا الذي حصله: خسر ماله، وتعب، وحصل لَهُ الأسف، بل إن الذي يُنفِق المال في مظاهره القُربة سينال العِقاب إذا كان يقصد بذلك غير وجه الله، نعوذ بالله الذي يُظهِر أنه يتصدق من أجل أن يُمدَح، من أجل أن يقال: إنه جَواد؛ هَذِه كبيرة من كبائر الذنوب؛ فسيتحسر يوم القيامة حيث يكون ذلك والعياذ بالله سببًا لعذابه.

المثال الثاني في مجلسنا اليوم مَثلٌ عجيب قال الله عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٨].

هنا ضرب الله مثلًا لِمَنْ؟ للشخص الذي تظهر لَهُ علامات الحق، ويَبين لَهُ الحق، ولكنه ينسلخ منه ويتركه ولا يتمسك به بأي عُذرٍ من الأعذار سواءً كان ذلك والعياذ بالله لفساد نفسه، أَوْ ترك الحق من أجل أمير، أَوْ من أجل جماعة، أَوْ من أجل حِزب، فإن الذي يعرف الحق وتتضح لَهُ معالمه ثم يَنقُص عَنْ هذا الحق والعياذ بالله وينسلخ من هذا الحق فإنه إنَّمَا اتبع الشيطان، فمثله كمثل كلبٍ وَهُوَ من أحقر المخلوقات عند الناس على هَذِه الصفة التي ذكرها الله عَزَّ وَجَلَّ.

ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ وقف طويلًا مع هذا المثل؛ لأن فيه حِكمًا كثيرة؛ يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

(شبه سبحانه مَنْ آتاه كتابه وعلمه العِلم الذي منعه غيره) وفي هذا إشارة يا إخوة: إلى أن تعلم العِلم نعمة يمتن الله، فالعلم إنَّمَا هو نعمةٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تستوجب شكرًا، لكن يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (فترك العمل به واتبع هواه) يعني بعض الناس يا إخوة يعرف عقيدة السلف، ويعرف أنها الصواب الذي لا شك فيه، وأَنْ ما يخالفها باطل لا حق فيه ولكن من أجل وظيفة، من أجل منصب؛ لأَنَهُ في دولة لا تُعلي عقيدة السَّلَف؛ يترك عقيدة السلف ويُظهِر عقيدة غيرهم مما يُرزَق به مالًا والعياذ بالله.. أَوْ نحو ذَلِكَ؛ فهذا داخلٌ في هذا المَثل بوجهٍ من الوجوه.

قال: (فترك العمل به واتبع هواه وآثر سخط الله على رضاه ودنياه على آخرته والمخلوق على الخالق) بِمَ شبهه؟ قال: (بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات وأوضعها قدرًا) والحقيقة يا إخوة بمجرد أن يقال: إن مَثله مَثل الكلب؛ فإن هذا يجعل المؤمن ينفر من هذا العمل، ويرى قُبح هذا العمل.

قال: (الذي هو من أخبث الحيوانات وأوضعها قدرًا وأخسها نفسًا) وانتبهوا لإشارة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ هنا في الكلام التالي لوجه الشبه، قال: (وهِمته لا تتعدى بطنه) هِمة الكلب لا تتعدى بطنه، فهكذا هذا عرف العِلم والحق والخير وتركه من أجل الدنيا يقول: (وهِمته لا تتعدى بطنه، وأشدها شرهًا وحِرصًا) ومن حرصه: أنه لا يمشي إلَّا وَهُوَ يتشمم الأَرْض مَا يرفع رأسه، دائمًا يضع رأسه في الأَرْض يتشمم الأَرْض من شدة حرصه، وكذا هذا الإنسان الذي يعرف الحق ويتركه هو بعد أن كان رأسه مرفوعًا وضع رأسه في الأَرْض من أجل الحرص، ومن أجل الشره والعياذ بالله.

قال: (ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزائه، وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه) إذا رميت لَهُ بأي شيء، من حرصه وشرهه يرجع إليه، وكذا هذا الإنسان مَا أن يُشار إليه بشيء حتى يذهب إليه وتجده متقلبًا مرة في الشِمال ومرة في اليمين، إن كانت الأموال في الشِمال كان في الشمال، إن كانت الأموال في اليمين كان في اليمين، إن كان الحَدِيْث عَنْ طاعة ولاة الأَمْر ولزوم الجماعة يُكَسِب المال وَهُوَ الذي تنظر إليه يعني الجهات المعنية كان مع هذا، وإن كان الذي يُكسِبه الجماهيرية والأموال أن يسب ولاة الأَمْر، وأن يحمل على الذين يرون طاعة ولاة الأَمْر في غير معصية اللَّهِ؛ كان مع الذين يسبون ولاة الأَمْر ويحملون على مَنْ يأمر بطاعة ولاة الأَمْر في غير معصية اللَّهِ.

يقول: (وإذا رميت إليه بحجرٍ رجع إليه ليعُضه من فرط نهمته وَهُوَ من أمهن الحيوانات وأحملها للهوان وأرضاها بالدنايا، والجِيف القذرة المُروِحة أحب إليه من اللحم الطري، والعُذرة أحب إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميتةٍ تكفي مئة كلبٍ) انتبهوا لهذا! يعني سبحان الله ابن القيم يعني وقف مع صفات القلب الكلب القبيحة التي تنطبق على هذا الذي مُثِل لَهُ بالكلب.

يقول: (وإذا ظفر بميتةٍ تكفي مئة كلبٍ لم يدع كلبًا واحدًا يتناول منها شَيْئًا) مع أنها ميتة وتكفي الكلاب الكثيرة لا يسمح لكلبٍ أن يشاركه فيها، قال: (إلَّا هَر عليه وقهره لحرصه وبُخله وشرهه، ومن عجيب أمره وحرصه أنه إذا رأى ذا هيئةٍ رثةٍ وثيابٍ دَنيةٍ وحالٍ زَريةٍ نبحه وحمل عليه كأنه يتصور مشاركته

لَهُ ومنازعته في قُوتِه، وإذا رأى ذا ثيابٍ حسنة وثيابٍ جميلة ورِئاسة وضع لَهُ أنفه بالأرض وخضع لَهُ ولم يرفع إليه رأسه).

قال: (وفي تشبيه مَنْ آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة مع وفور علمه) لأَنَّهُ عرف الحق، (بالكلب في حال لهثه سِرٌ بديع، وَهُوَ أن هذا الذي حاله مَا ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه إنَّمَا كان لشدة لهفه على الدنيا لانقطاع قلبه عَنْ الله والدار الآخرة، فهو شديد اللهف عليها، ولهفه عليها نظير لهف في الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى).

قال ابن جُريج: (الكلب منقطع الفؤاد لا فؤاد لَهُ ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦] يلهث فهو مَثل الذي يترك الهدى لا فؤاد لَهُ، إنَّمَا فؤاده منقطع).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في تفسير هذا الكلام: (قلت: مراده بانقطاع أنه ليس لَهُ فؤادٌ يحمله على الصبر وترك اللهث) هذا بالنسبة للكلب، وكذلك بالنسبة للذي يلهث وراء الدنيا ويترك الحق من أجل الدنيا فإنك تجده دائمًا لاهثًا، ودائمًا خائف الفؤاد، إذا استدعاها المسؤول خاف أن يكون أخطأ وأن يُفعَل لَهُ وأن يُفعَل لَهُ، إن تركه المسؤول خاف يقول: لماذا لا يسألون عني؟ لعلهم يعني لاحظوا عليَّ شَيْئًا، لعله كذا، يجعل الله ذلك في قلبه، الذي يعرف الحق ويُعرِض عنه يا إخوة يفقد الأمن النفسي، لا يكون في قلبه أمن، بل دائمًا يكون خائفًا إن رأى جنديًا خاف، وإن لم يرى جنديًا خاف، إن استدعاه المسئول خاف، وإن تركه المسؤول خاف، ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (فالكلب من أقل الحيوانات صبرًا عَنْ، وإذا عطش أكل الثرى من العطش، وإن كان فيه صبرٌ على الجوع، قال: وعلى كل حالٍ فهو من أشد الحيوانات لهثًا، يلهث قائمًا وقاعدًا وماشيًا وواقفًا؛ وذلك لشدة حرصه، فحرارة الحرص في كبده تُوجِب لَهُ دوام اللهث.. فهكذا مُشَبَّهُهُ في شدة حرصه وحرارة الشهوة في قلبه تُوجِب لَهُ دوام اللهثِ، فإن حملت عليه الموعظة والنصيحة فهو يلهث، وإن تركته ولم تعظه فهو يلهث.

قال مُجاهِد: (وذلك مَثل الذي أوتي الكتاب ولم يعمل به، ثم قال: وتأمل مَا في هذا المثل من الحِكم والمعنى، فمنها قول اللَّهِ: ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] فأخبر سبحانه أن المُنعِم عليه هو اللَّهِ) يسر لَهُ الذِكر، يسر لَهُ الآيات، آتاه الآيات.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (فأخبر سبحانه أنه هو الذي آتاه آياته فإنها نِعمة والله هو الذي أنعم بها عليه فأضافها إلى نفسه) ثم قال: (﴿ فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٥] أي: خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها، وفارقها فراق الجلد يُسلخ عَنْ اللحم).

ثم أشار ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ إلىٰ ملمح قال: (ولم يقل: فسلخناه منها؛ لأَنَّهُ هو الذي تسبب إلى انسلاخه باتباعه للهوى) فهو الذي ظلم نفسه بشرهِه، وحُبه للدنيا، وإيثاره للدنيا على الآخرة.

قال: ومنها قوله سبحانه: (﴿ فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ [الأعراف: ١٧٥] أي: لحقه وأدركه).

☜ **مُراد ابن القيم أن يُبَيّن لنا هنا يا إخوة:** أن آيات الله الأصل أن الإنسان يُحفَظ بها من الشيطان، لكن هذا لضعف قلبه وفساد إرادته لم يُحفَظ من الشيطان بهذه الآيات، بل أتبعه الشيطان.

قال: (كان محفوظًا محروسًا بآيات الله، محمي الجانب بها من الشيطان، لا ينال منه شَيْئًا إلَّا على غِرةٍ وخطفة، فلما انسلخ من آيات الله ظفِر به الشيطان ظفَر الأسد بفريسته فكان من الغاوين العاملين بخلاف عملهم).

وهذا على كل حال: هذا المثال كما قلنا يُضرَب لكل مَنْ عَلِمَ وترك العمل من أجل الهوى، أَوْ من أجل الشهوة، أَوْ من أجل المنصب.. أَوْ غير ذَلِكَ، وقد أفاض ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا المثال إفاضةً كبيرة، ومَنْ أراد أن يستفيد مما ذكره ابن القيم فليرجع إليه فإنه رَحِمَهُ اللَّهُ قد وقف مع هذا المثال وقفةً طويلة، ولكن أنا اطوي الكلام من أجل ضِيق الوقت.

المثال التالي مثالٌ مَا أحوجنا إليه وإلى أن نتذاكره وأن نقف عنده: فإن الأَمْر الذي فيه من آفات الزمان، وللأسف أن بعض طلاب العِلم قد غرهم الشيطان فزين لهم الوقوع في تلك الآفة وألبسها بلباس الدين؛ ذلك في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢].

هَذِه الآيات التي أدبنا فيها ربنا تأديبًا عظيمًا قال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحجرات: ١٢] والقاعدة يا إخوة: أن الآية إذا صُدِرت بـ ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحجرات: ١٢] فإنَ مَا فيها من الأمور العظيمة التي ينبغي على الإنسان أن ينتبه لها.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ﴾ لماذا؟ ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ فأمرنا الله عَزَّ وَجَلَّ أن نجتنب كثيرًا من الظن لماذا؟ خشية أن نقع في الإثم لأن بعض الظن إثم، فسبحان الله يا إخوة! كيف علمنا الله أن نحتاط لأنفسنا في الظنون، وأن نجتنب الكثير من الظن خشية أن نقع في الإثم مع أن الله قال: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] ولم يقل: إن كثير الظن إثم، وإنما أراد الله أن يعلمنا أن نحتاط لأنفسنا في باب الظنون، ولا سيما فيما بيننا يا إخوة نحن طلاب العِلم الذين ظهرت فينا أَوْ أظهرنا السُنَة وأقبلنا على التوحيد وكنا إخوة؛ ينبغي علينا أن نجتنب الكثير من الظنون، وأن نحتاط لأنفسنا في هذا الباب، وألا نؤاخذ إخواننا بالظنون.

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ الذي يدعو إلى التجسس يا إخوة: هو الظن، فكأن الله عَزَّ وَجَلَّ أمرنا أن نجتنب كثيرًا من الظن، ثم قال لنا: فإن وقعتم في الظن فلا تجسسوا، وإنما اتركوا الأَمْر وأعرِضوا عنه، لو جاء إبليس فأوقع في قلبك الظن بأخيك في منهجه، في عقيدته، من غير أمرٍ بين بل هو ظاهرٌ على السُنَة والاستقامة والعقيدة السلفية؛ فلا تتجسس، لا تذهب تسمع وتقرأ، بل احمل الأَمْر على المحمل الحسن مَا دام أن الأصل يدل عليه.

قال: ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: ١٢] فشبه ومَثل الغِيبة بأكل لحم المسلم مَيتًا، لا شك أن أكل لحم الإنسان قبيح، فكيف بأكل لحم المسلم؟ لا شك أنه أشد قُبحًا، فكيف بأكل لحم المسلم الميت؟ لا شك أن الأَمْر أعظم قُبحًا.

﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢] إما أن المراد: فكرهتم هذا الأَمْر لقُبحه، أَوْ أن المراد: فكرهتم مَنْ يأكل لحم أخيه مَيتًا؛ فينبغي ألَّا تحبوا الغِيبة وأهلها، والغِيبة يا إخوة: ذِكرك أخاك بما يكره في غيبته إن كان فيه، وإن لم يكن فيه فهذا البُهتان؛ فهو غِيبة وكَذِب والعياذ بالله، فإن كان ذِكرك أخاك بما يكره فيما يتعلق بأمور الدنيا فهو غِيبة على كل حال سواء كان صالحًا فاسقًا في أمور الدنيا ذِكرك أخاك بما يكره في غيبته غِيبة على

كل حال، فلان قصير، ذاك القصير القريب من الأرض، فلان أعور، فلان زوجته كذا؛ هَذِه غيبة على كل حال.

يا إخوة! إبليس يَغُر بعض الإخوة الذين عندهم غَيرة وعندهم سُنَة فيتكلمون عَنْ بعض أهل البدع في أمور الدنيا، فيقول: ذاك يعني متين مَا أدري مَا به، أعور مَا أدري مَا به، امرأته كذا وكذا؛ هذا يا إخوة على كل حال غِيبة سواء كان عَنْ من تحب أَوْ تكره من المسلمين، سواء كان كُرهك لَهُ شرعيًا أَوْ غير شرعي، وإن كان ذِكره فيما يتعلق بالأمور الشرعية مثل أن تذكر الفاسق المُظهِر فسقه بفسقه، إنسان يشرب الدخان أمام الناس وأنت في غيبته تقول: فلان يشرب الدخان؛ هذا ليس غِيبة؛ لأَنَهُ هو مُظهِرٌ فِسقه أمام الناس، مبتدع تذكره ببدعته؛ هذا ليس غِيبة، بشرط: أن يكون القصد صحيحًا فيكون قصدك نُصرة الدين ونُصرة الحق، على أنه مع هذا ينبغي للإنسان أَنْ لا يُكثِر منه وإنمَا هو في الحقيقة عند العلماء والعُقلاء بمنزلة أكل المضطر من الميتة، مَا يحقق المقصود، أما أن يجعل الإنسان هذا ديدنه في كل مجلسٍ وفي كل وقتٍ.

- هذا في الحقيقة أولًا: لا فائدة منه.
- ثانيًا: يُقسي القلب.
- ثالثًا: يُعوِد الإنسان على الغِيبة.

ولذلك يا إخوة نقول: لا شك أن ذِكر الفسقة بفسقهم، وذِكر المبتدعة ببدعهم لنُصرة الدين وإعزاز السُنَة وقهر البدع من أعظم أنواع الجهاد في سبيل الله، ومن أحسن المكارم وأفضلها، ولكن ينبغي للعاقل العالِم أن يجعل ذلك بالمقدار، وأَلَّا يُكثِر منه، وأن يُجعَل الأَمْر إلى أهله أيضًا، فلا يُعرَض الأَمْر على مَنْ ليس أهلًا لَهُ، أَوْ يضره؛ فهذا أمرٌ من الأهمية بمكان.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (شبه الله تمزيق عِرض الأخ بتمزيق لحمه ولما كان المُغتاب يُمزِق عِرض أخيه في غَيبته كان بمنزلة مَنْ يقطع لحمه في حال غَيبة روحه عنه بالموت، قال: ولما كان المغتاب عاجزًا عَنْ دفعه عَنْ نفسه بكونه غائبًا عَنْ ذمه كان بمنزلة الميت الذي يُقطَع لحمه ولا يستطيع أن يدفع عَنْ نفسه).

☜ يعني يا إخوة! ابن القيم هنا يقول: مَا وجه الشبه بين الغِيبة وأكل لحم المسلم الميت؟

❖ يقول وجه الشبه من وجهين:

الوجه الأول: أن المُغتاب يذكر المسلم بعيبه في غَيبته، فهو كمَنْ يأكل من لحم الميت؛ لأن روحه غائبة.

الوجه الثاني: أن المُغتاب مِنْ أخيه لا يستطيع أن يدفع عَنْ نفسه؛ فكذلك الميت لا يستطيع أن يدفع عَنْ نفسه.

قال: (ولما كان مقتضى الأُخوة التراحم والتواصل والتناصر فعلق عليها المُغتاب ضد مقتضاها من الذم والعيب والطعن كان ذلك نظير تقطيع لحم أخيه، والأخوة تقتضي حفظه وصيانته والذَب عنه).

قال: (ولما كان المغتاب متمتعًا بعِرض أخيه متفكهًا بغِيبته وذمه متحليًا بذلك) يعني للأسف يا إخوة كثير من الناس ينظرون إلى الغِيبة على أنها تجعل المجلس طيبًا، والمغتاب يقولون: فلان سلطان مجلس، والمغتاب للمسلمين هو في الحقيقة يتفكه بأعراضهم قال: (لما كان المُغتاب كَذَلِكَ شُبِه بآكل لحم أخيه بعد تقطيعه) كأنه يقطع اللحم ويأكله يستمتع به، (ولما كان المُغتاب محبًا لذلك معجبًا به شُبِه بمَنْ يحب أكل لحم أخيه ميتًا، ومحبته لذلك) وانتبهوا لهذا الملمح، قال: (ومحبته لذلك قَدرٌ زائدٌ على مجرد أكله) يعني الأكل مجرد فعل، لكن أن يحب ذلك فهذا قَدر زائد وأقبح من مجرد الأكل.

قال: (فتأمل هذا التشبيه والتمثيل وحُسن موقعه ومطابقة المعقول فيه للمحسوس، وتأمل إخباره عنهم بكراهة أكل لحم الأخ ميتًا ووصفهم بذلك في آخر الآية) يعني: كأن هذا وصف بالتناقض، أنتم تكرهون أن يأكل الإنسان لحم أخيه ميتًا وتحبون الغيبة، ومقتضى العِلم والفقه: أن تكرهوا الغِيبة كما تكرهون أكل لحم الأخ ميتًا.

⊂ من أمثال القرآن العظيمة التي هِيَ فيها مواعظ للقلوب؛ قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

وقريبٌ منه قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

فمَثَل الله عَزَّ وَجَلَّ الحياة الدنيا في سُرعة زوالها بالنبات، يبدأ ضعيفًا ثم يقوى، ثم يَستحصِد، ثم يتكسر ويُصبح هشيمًا تذروه الرياح.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥] فالله مقتدِرٌ على الدنيا وأهلها، كما أنه سبحانه مُقتَدِرٌ على الزرع، وهذه حالاتنا في الدنيا مثل الزرع.

وما حالاتنا إلَّا ثلاثٌ: شبابٌ، ثم شِيبٌ، ثم مَوتٌ.

وآخــر مَــا يســمىٰ المــرء شــيخًا ويتلـــوه مـــن الأســـماء مَيـــتُ

حالاتنا في الدنيا كحالات الزرع: ضعف وصِغر، ثم شباب وقوة، ثم وهن وضعف، ثم موت، ولكن الشأن كله: أن بعد الموت نُقبَر وفي قبورنا نُسأل، ثم نُبعَث، وبين يدي ربنا نُحاسَب، ثم إلى جنةٍ أَوْ نار.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (شبه الحياة الدنيا في تتزين في عين الناظر فتروقه بزينتها وتُعجِبه فيميل إليها ويهواها اغترارًا منه بها حتى إذا ظن أنه مَالِكٌ لها قادرٌ عليها سُلِبها بغتةً أحوج مَا كان إليها وحيل بينه وبينها) هذا أمر الدنيا، لا تملك منها شَيْئًا، والأجل محدود، وإذا حل الأجل سُلِبت منك الدنيا وأُخرِجت منها.

يقول: (فشبهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها فتُعشِب ويَحسُن نباتُها ويَروق منظرها للناظر فيُغتَر به ويَظن صاحبه أنه قادرٌ عليها مَالِكٌ لَهُ؛ فيأتيه أمر الله فتُدرِك نباته الآفة بغتةً فتصبح كأن لم تكن من قبل) يشير ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أن الدنيا مثل الأَرْض والزرع فيها قد تدركه آفة قبل أن يستحصد.

نظر ميمون ابن مهران يومًا إلى أصحابه فإذا منهم شبابٌ ومنهم شيوخ، فقال: يا معشر الشيوخ مَا يُنتَظر بالزرع إذا ابيض؟ قالوا: الحصاد، يشير إلى بياض لحاهم وشعورهم، ثم نظر إلى الشباب وقال: يا معشر الشباب! إن الزرع قد تدركه آفةٌ قبل أن يستحصد، وها نحن نرى شبابًا يموتون، نرى أطفالًا يموتون، ونرى شبابًا يموتون، ونرى كهلةً يموتون، ونرى شيوخًا يموتون.

فابن القيم رَحِمَهُ اللهُ يشير إلىٰ هَذِه القضية، فيقول: (فتدرك نباتها الآفة بغتةً فتصبح كأن لم تكن قبل، فيخيب ظنه وتصبح يداه صفرًا منها؛ فكذا حال الدنيا والواثق بها سواء؛ وهذا من أبلغ التشبيه والقياس).

ويقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ: (هذا المثل من أحسن الأمثلة وَهُوَ مُطابِقٌ لحالة الدنيا، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها.. ونحو ذلك يزهو لصاحبه إن زَهَا وقتًا قصيرًا فإذا استكمل وتم اضمحل) المال إما أن يزول عنك وإما أن تزول عنه، ولذلك النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي - قَالَ - وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ» وما سوى ذلك فذاهبٌ وتاركه للناس، المال إما أن يذهب عنك، وإما أن تذهب عنه.

قال: (فإذا استكمل وتم اضمحل وزال عَنْ صاحبه، أَوْ زال صاحبه عنه؛ فأصبح صفر اليدين منها ممتلئ القلب من همها وحُزنها وحسرتها، قال: فذلك ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أي: نبت فيها من كل صِنفٍ وزوجٍ بهيج مما يأكل الناس كالحبوب والثمار، ومما تأكل الأنعام كأنواع العُشبِ والكلأ المختلف الأصناف).

طبعًا العُشب يا إخوة: هو النَبت اليابس.

والكلأ: هو النبت أخضر كان أَوْ يابسًا.

قال: (﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ أي: تزخرفت في منظريها، واكتست في زينتها فصارت بهجةً للناظرين، ونُزهةً للمتفرجين، وآيةً للمتبصرين فصِرت ترى لها منظرًا عجيبًا، مَا بين أخضرَ وأصفرَ وأبيضَ، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: حصل معهم طمع بأن ذلك سيستمر ويدوم؛ فبينما هم في تلك الحال ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ أي: كأنها مَا كانت؛ فهذه حال الدنيا سواءٌ بسواء).

ومن الأمثلة والأمثال العجيبة العظيمة مع قِصر لفظها في الْقُرْآنِ الكَرِيم؛ قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤].

الله عَزَّ وَجَلَّ ذَكر الكفار وذكر المؤمنين، وبَين أن مَثل الفريقين كالأعمى والبصير، فالكفار وإن كانوا يُبصِرون بأعينهم لا بصيرة عندهم في الحقيقة؛ فكأنهم عُمي، وهذه سبحان الله يا إخوة أمر عجيب، الكافر تنطمس بصيرته حتى مع ذكائه ونبوغه في العلوم تجده منطمس البصيرة.

في سنة من السنوات يا إخوة كنا في جامعة بوذية في تايلاند وفيها كلية للشريعة، وكنا نقيم دورة في كلية الشريعة، وكنا نخرج الصباح نذهب إلى مقر الدورة ونمر بأساتذة كبار يخرج الواحد منهم في الصباح بصحنٍ فيه تفاحة وكأس ماء ويضعه عند الصنم التمثال الذي عند سور البيت، يضع التفاحة ويضع كأس الماء وإذا جاء في المساء قبل المغرب جاء وجد التفاحة كما هِيَ والماء كما هو وحمل التفاح والماء وأدخلها في البيت، ومن الغد يقوم يخرج التفاحة ويضعها عند هذا الصنم، سبحان اللَّهِ! أين البصيرة؟

أولًا: صنم يحتاج أن تخدمه كيف يكون إلهًا؟ مَا يستطيع أن يأتي بالتفاحة لنفسه من داخل البيت أنت الذي تأتيه بالتفاحة والماء.

ثانيًا: تضعها جنبه مَا يستطيع أن منها شَيْئًا، تأتي وتجدها كما هِيَ وتحملها؛ ومع ذلك يعبدون هذا الصنم، وهم أساتذة كبار في علوم من علوم الدنيا الدقيقة، سبحان اللَّهِ! كأنهم عُموا، وإِلَّا لو وُجِد شيء من البصيرة لأدركوا أن هذا باطل يقينًا.

والمؤمن مَثله مَثل البصير الذي يُبصِر وينتفع؛ فيعرف أن هذا ينفعه، وأن هذا يضره، ومَثل الكافر كالأصم فهو مع عماه عمى البصيرة لا يسمع سمع انتفاع، هو يسمع، ولكن لا يسمع سمع انتفاع، وقد يكون الشيطان أصم أذنيه بالشُبهة، كنت أتعجب كثيرًا من النصارى في قولهم بالتثليث مع أن الأَمْر يمكن إبطاله بقليلٍ من التفكر، فلما زُرنا سَنةً من السنوات أمريكا، وزرنا جامعة تُعنى بدراسة الدين اللاهوت، فجلسنا مع رؤساء الأقسام فلما طلبنا منهم أن نتناقش في مسألة التثليث وبدأنا نتكلم قال كبيرهم: لا، لا تتكلم في هذا الأَمْر، لماذا؟ يقول: الدين فوق العقل، معنى ذَلِكَ: أنك مَا يمكن أن تنظر إلى هذا الأَمْر بعقلك، وهذه شُبهة وضعها الشيطان في نفوسهم؛ حتى لا يسمعوا الحق، فهم سبحان الله مع كونهم يسمعون سمعًا من حيث الظاهر لكنهم لا يسمعون سمعًا ينتفعون به، أما المؤمن فمثله مَثل السميع، والسميع: كثير السمع، فهو يسمع وينتفع.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (إنه سبحانه ذكر الكفار ووصفهم بأنهم مَا كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يُبصرون، ثم ذكر المؤمنين ووصفهم بالإيمان والعمل الصالح والإخبات إلى ربهم؛ فوصفهم بعبودية الظاهر والباطن، وجعل أحد الفريقين كالأعمى والأصم من حيث كان قلبه أعمى عَنْ رؤية الحق) وهذا

هو العمى الحقيقي؛ عمى القلوب التي في الصدور هو العمى الحقيقي: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

قال: (حيث كان قلبه أعمى عَنْ رؤية الحق أصم عَنْ سماعه؛ فشبهه بمَنْ بصره أعمى عَنْ رؤية الأشياء وسمعه أصم عَنْ سماع الأصوات، والفريق الآخر القلب سميعُه) ولذلك تجده مؤمنًا مُوقِنًا حتى لو كان لا يرى في الحقيقة، بل من المؤمنين اليوم مَنْ لا يرى ولا يسمع، ومع ذلك عنده إيمان ويقين؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ أنار بصيرته.

قال: (كبصير العين وسميع الأذن؛ فتضمنت الآية قياسين وتمثيلين للفريقين، ثم نفى التسوية عَنْ الفريقين بقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾).

من أمثلة القرآن التي نص أهل العلم على أنه ينبغي على كل مؤمن أن يقف عندها، وأن يتدبر مَا فيها من المعاني والحِكم؛ قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۝٧٣ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ﴾ فجعل النداء للناس أجمعين.

﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ فإن مَنْ استمعه وتدبره وتأمل معناه؛ سينتفع به غاية الانتفاع، مَا هذا المَثل؟ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ جميع الآلهة، سواءً كانت هَذِه الآلهة من الأصنام، من الأشجار، من الملائكة، من الأنبياء؛ كل آلهةٍ تُعبَد من دون اللَّهِ.

﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ الذباب عند الناس من أحقر الحيوانات وأصغر الحيوانات؛ كل الآلهة لو اجتمعوا على أن يخلقوا ذبابةً مَا استطاعوا، ليس الواحد منهم، بل جمعهم لا يستطيع أن يخلق ذبابة، والله خلق الخلق أجمعين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

طيب هم لن يخلقوا ذبابة: ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ لو سلبهم الذباب شَيْئًا والذباب لا يسلب إلَّا شَيْئًا يسيرًا، ﴿لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ لا يمكن أن يُستعاد، وهذا دليلٌ على ضعفهم؛ ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (حقيقٌ على كل عبدٍ أن يستمع قلبه لهذا المَثل) يا إخوة! هذا المثل يَسُد أبواب الشرك ويقطع وسائل الشيطان لإغواء الناس بالشرك، الشيطان يأتي للناس حتى يأتي إلى مَنْ قال: أشهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رَسُول الله، ويقول: لا، الأولياء ينفعون ويضرون، الأولياء يتحكمون في الكون، الأولياء يرزقون، بل بلغ الحال ببعضهم والعياذ بالله أن يقول: إن الولي يستطيع أن يَخلُق؛ فادعوهم واجعلوهم وسائط بينكم وبين الله، ادعُ الأولياء وتقرب إلى الأولياء واجعلهم وسائط بينك وبين اللَّهِ.

نقول لهم: هاتوا لنا وليًا استطاع أن يخلق ذبابة؟ ولو اجتمع الأولياء والله مَا يستطيعون أن يخلقوا ذبابة، وهاتوا لنا أحدًا يستطيع أن يستنقذ مَا أخذه الذباب؛ فهذا المثال أَوْ هذا المثل من أعظم مَا ينفع العباد من قطع علائق الشرك من أصلها ليتعلق القلب بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا توجه القلب إلَّا لله، لا يدعو إلَّا الله، لا يستغيث إلَّا بالله، لا يَنذُر إلَّا لله.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (حقيقٌ على كل عبدٍ أن يستمع قلبه لهذا المَثل ويتدبره حق تدبره؛ فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه؛ وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر عَلَى إيجاد مَا ينفع عابده) لماذا يُعبَد المعبود؟ لأَنَهُ يُرجى نفعه ويُخاف ضُره، فأقل درجة في المعبود أن يكون قادرًا على إيجاد مَا ينفع وإعدام مَا يضر.

يقول: (والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقه، فكيف مَا هو أكبر منه؟ ولا يقدرون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شَيْئًا مما عليهم من طِيبٍ ونحوه فيستنقذوه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوانات ولا على الانتصار منه واسترجاع مَا سَلبهم إياه؛ فلا أعجز من هَذِه الآلهة ولا أضعف منها، فكيف يستحسن عاقِلٌ عبادتها من دون اللَّهِ).

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهذا المثل من أبلغ مَا أنزل الله في بُطلان الشِرك وتجهيل أهله وتقبيح عقولهم والشهادة على أن الشيطان قد تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة).

هذا يا إخوة فيه إشارة إلى موضوع وهو: أن الكرة التي يُلعَب بها كانت معروفة من زمن ابن القيم، ليس صحيحًا مَا يُذكَر مثلًا أن الإنجليز هم الذين اخترعوا الكرة.

هذا ابن القيم وهذا نص يقول: (أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة حيث أعطوا الإلهية التي من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات والإحاطة بجميع المعلومات والغِنى عَنْ جميع المخلوقات وأن يُصعَد

إلى الرب في جميع الحاجات وتفريج الكُربات وإغاثة اللهفات وإجابة الدعوات فأعطوها صورًا وتماثيل يمتنع عليها القدرة على أقل مخلوقاتٍ للإله الحق، وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء إلهيتهم: أن هذا الخلق الأقل الأذل العاجز الضعيف لو اختطف منهم شَيْئًا واستلبه فاجتمعوا على أن يستنقذوه منه لعجَزوا عَنْ ذلك ولم يقدروا عليه، ثم سوى الله بين العابدِ والمعبود في الضعف والعجز بقوله: ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾).

قيل الطالب: العابد، والمطلوب: المعبود؛ فهو عاجزٌ متعلقٌ بعاجز، ضعيف متعلق بضعيف.

وقيل: الطالب الإله المعبود بالباطل، والمطلوب: الذباب؛ يُطلَب منه مَا أُستُلِب منه.

وقال أيضًا: (فتأمل هذا المثل الذي أُمِر الناس كلهم باستماعه فمَنْ لم يستمعه فقد عصى أمر اللَّهِ: كيف تضمن إبطال الشِرك وأسبابه بأصح بُرهانٍ في أوجز عبارة وأحسنها وأحلاها).

ونحن يا إخوة بحاجة إلى شرح هذا المثال لأهلنا للمسلمين، فإن بعض المسلمين غرهم الشيطان وأوقعهم في الشرك بالله، زاعمًا لهم أن هؤلاء المخلوقات تستطيع أن تنفعهم وأن تضرهم، وأَنْهُم شُفعاء بينهم وبين الله، وللأسف أن بعض الخطباء في بعض ديار المسلمين يقررون هذا الشِرك للناس، فأمتنا، أهلنا، أحبابنا، إخواننا بحاجة لأن نقرر لهم التوحيد، وأن نحذرهم من الشرك، وأغلى وأحلى مَا نملك يا إخوة: التوحيد؛ فيجب علينا أن نتقي الله في توحيدنا، وأن نتقي الله في أمتنا، وأن نُعلِم الناس التوحيد، وأن يكون حرصنا الأعظم على أن نعلم الناس التوحيد.

ومن أعظم مَا ينفع الناس: هَذِه الأمثال التي ضربها الله عَزَّ وَجَلَّ نبينها ونبسطها ونشرحها ونبين كلام العلماء حولها.

من الأمثال العظيمة التي ذكرها الله عَزَّ وَجَلَّ في القرآن مَثَلٌ نسمعه كثيرًا ويُخطئ كثيرٌ من الناس في فهمه، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٥].

هذا المثل يا إخوة ضربه الله عَزَّ وَجَلَّ لنوره في قلب العبد، في قلب المؤمن.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (هذا مَثَلٌ لنوره في قلب عبده المؤمن كما قال أُبي بن كعب وغيره، وقد اُختُلِف في تفسير الضمير في نوره، فقيل: هو النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أي مَثل نور محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (وقيل: المؤمن) أي: مَثل نور المؤمن.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (والصحيح أنه يعود إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، والمعنى: مثل نور الله عَزَّ وَجَلَّ في قلب عبده وأعظم عباده نصيبًا من هذا رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول: وهذا النور يُضاف إلى الله تعالى إذ هو مُعطيه وواهبه إياه، ويُضاف إلى العبد إذ هو المحل القابل لَهُ، فالفاعل هو الله تعالى مُفيض الأنوار الهادي لنوره مَنْ يشاء، والقابلُ: العبد المؤمن، والمحل: قلبه، والحامل: هِمته وعزيمته وإرادته، والمادة: قوله وعمله، قال: وهذا التشبيه العجيب الذي تضمنته فيه من الأسرار والمعاني وإظهار تمام نعمته على عبده المؤمن بما أناله من نوره مَا تَقَرُ به عيون أهله وتبتهج به قلوبهم).

فهذا المثال يقول فيه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ وأنا سأقف يعني بعد قليل من أجل ترك المجال للأسئلة، يقول: (فتأمل صِفة مِشكاة وَهِيَ قوةٌ لا تنفذ) القوة التي تكون في الجدار يا إخوة ولا تكون نافذة، بل يكون الجدار من خلفها، وهذا قديمًا كان الناس يضعونه في البيوت ويضعون فيه السِراج؛ لأن هذا يجمع الضوء.

يقول: (فتأمل صفة مشكاةٍ وَهِيَ قوةٌ لا تنفذ لتكون أجمع للضوء قد وُضِع فيها مصباح، وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في صفائها وحُسنها ومادته) أي: الزيت، (من أصفى الأدهان وأتمها وَقودًا من زيت شجرةٍ في وسط القراحِ لا شرقيةٍ ولا غربية بحيث تصيبها الشمس من أحد طرفي النهار بل هِيَ في وسط القراح محمية بأطرافها تصيبها الشمس أعدل إصابة، فمن شدة إضاءتها وحُسن زيتها يكاد يُضيء من غير أن تمسه نار؛ فهذا المجموع هو مَثل نور الله عَزَّ وَجَلَّ في قلب عبده المؤمن).

وتكلم رَحِمَهُ اللَّهُ كلامًا طويلًا وقال: (مَثل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل ناحية، كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان من بدعٍ وضلالة واجتناب هُدى واتباع هوى وإعراضٍ عَنْ أسباب السعادة، وهذا هو النور الذي أودعه الله عَزَّ وَجَلَّ في قلب المؤمن من معرفته، ومحبته، والإيمان به) ثم ذهب رَحِمَهُ اللَّهُ يذكر صفات هذا المثال ويجليها.

إذًا: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ يعني: أن هذا مَثل نور الله الذي يرزقه العبد المؤمن ويكون في قلبه، كمِثل هذا المِثال الذي بينه الله عَزَّ وَجَلَّ.

☜ **وعلى كل حال أيها الإخوة:** إن أمثال القرآن فيها حِكمٌ عظيمة، ولو أن طالب العِلم أخذ مثالًا واحدًا من أمثال القرآن ودرسه وكتب فيه بحثًا لوجد مادةً كبيرة.

ولذلك يا إخوة: لو أن كل واحدٍ منا يستطيع أن يُدَرِس في مسجد جعل من ضمن دروسه أن يعرض مثلًا من أمثلة القرآن على الناس، يقرأ في كلام أهل العِلم ويُلَخِص كلامهم بما يفهمه الناس، ويقرأ لهم المثل ويشرح لهم ذلك المثل؛ لانتفع الناس كثيرًا به، واندفعت كثيرٌ من الشرور عنهم.

فأسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يجعلنا من مُحبي القرآن، ومن أهله، ومِمَن يسعون في تدبره وفَهمه، وتذكير الناس به.

ولعلنا نقف هنا من أجل أن نُجيب عَنْ بعض أسئلة إخواننا قبل أن نتوقف ليستريح الإخوة قليلًا قبل صلاة المغرب، واللهُ أَعْلَمُ.

الأسئلة

السؤال: إذا كان الجار يؤذي جاره والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوصانا بالجار فما حُكم ذلك عند اللَّهِ؟ والسؤال الثاني كَذَلِكَ يقول: بخصوص الزوجة إذا كانت الزوجة تخرج بدون إذن زوجها، ما حُكم ذَلِكَ؟

الجواب: أما شأن الجار فيا أحبة شأن الجار في ديننا عظيم حتى قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِي جَارَهُ» فإكرام الجار من أعظم أمور ديننا، ولا شك أن أذية الجار من كبائر الذنوب، وأَنَّهَا تسبب لعن الله للعبد، وتسبب لعن المؤمنين للعبد، فالذي يؤذي جاره في الحقيقة أهلٌ لأن يُلعَن، وهذا دليل على قُبح أذية الجار.

لكن يا إخوة! أُمِرنا بالصبر على أذية جيراننا، وإذا أذانا الجار لا ينبغي أن نقابل أذيته بالأذية فإن الأذية لا يُعَاقَب بها، وهذه قاعدة يا إخوة انتبهوا لها: مَا كان من أمر الله هو الذي طلبه منا لا يُعاقَب بضده، يعني كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (مَنْ كَفَرَك لا يجوز أن تعاقبه بتكفيره) أهل السُّنَّة وَالْجَمَاعَة مَنْ اعتدى عليهم فكفرهم لا يكفرونه إلَّا إذا أتى بمُكَفِر، مَنْ شتمك وسبك في دينك فإنك لا تعاقبه بمثل هذا.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (كمَنْ زنا بِعِرض مسلم لا يجوز للمسلم أن يزني بِعِرضه) فإذا آذاك جارك فإنه لا يجوز أن تعاقبه بالأذية، إذا وضع القمامة عند باب بيتك مَا يجوز أن تقول للأولاد: اليوم ضعوا القمامة عند باب فلان، إذا أوقف السيارة وضيق عليك الطريق مَا يجوز أن توقف السيارة وتُضيق عليه الطريق وتقول دقة بدقة، بل الواجب علينا أن نصبر على أذية الجار.

والحقيقة أن مثل هذا يحتاج محاضرة؛ لأنَّا نجد اليوم والعياذ بالله أن كثيرًا من المسلمين فرطوا في حقوق الجار، الآن يا إخوة بعض الجيران مَا يعرفون أسماء بعضهم، تأتي في الحي وتسأل عَنْ فلان وربما سألت جاره الذي بجواره يقول: والله مَا نعرفه، هو موجود عندنا في هذا الحي؟ والناس الذين يسكنون في العمارة الواحدة مَا يعرف بعضهم اسم أخيه فضلًا عَنْ أن يُكرِمه ويؤدي إليه حقه؛ وهذا يخالف مقاصد الشريعة، ونحن بحاجة إلى التذكير الأَمْر؛ فحقيقٌ لطلاب العِلم أن يقيموا المحاضرات في هذا الموضوع.

وأما سؤال الأخ عَنْ كون المرأة تخرج بغير إذن زوجها؟ فلتعلم المرأة المسلمة أن طاعتها لزوجها في غير معصية الله واجبة ومن فرائض الدين، فلا يجوز للمرأة أن تعصي زوجها في غير معصية الله حتى لو كانت ترى أن المصلحة في غير هذا، بل يا إخوة نص الفقهاء نصًا على أن الزوج لو منعها من زيارة أهلها أساء في منعه ويجب عليها أن تطيعه، وحق الزوج مُقدَم على حق الأب في الطاعة، فشأن الزوج مع الزوجة عظيم؛ فلا يجوز للمرأة إذا منعها زوجها من أن تخرج بغير إذنه أن تخرج بغير إذنه؛ فإذا خرجت كانت آثمة.

فالواجب على النساء: أن يتقين الله، وأن يعلمن أن طاعة الزوج من طاعة الله، وأن يلزمن ذلك، والواجب على الأزواج: أن يتقوا الله في النساء، وألا يحملوا النساء على المعصية، فلا ينبغي للزوج أن يأمرها بما لا تُطيق أَوْ يأمرها بما هو شاق، فالزوج ينبغي عليه الرِفق، والزوجة ينبغي عليها السمع والطاعة، ومع ذلك فليست الحقوق عندنا في الشرع صفقة مبادلة وإنما كل واحد يؤدي الذي عليه ويسأل الله الذي لَهُ، فالزوجة تطيع زوجها وإن كان في زوجها ظُلمٌ، والزوج يجب عليه أن يؤدي زوجته من الإحسان والرعاية والعِشرة بالمعروف وإن كان في الزوجة شيء من عدم استقامة الحال لَهُ.

فالشاهد: إني أنصح المرأة المسلمة بأن تتقي الله عَزَّ وَجَلَّ وأن تُطيع زوجها في غير معصية اللَّهِ.

السؤال: مع استخدام خاتم التسبيح لضبط عدد التسبيح، أنا استخدمه لضبط العدد حيث إني أداوم على ذلك صباحًا ومساءًا وقد تعود عليه وأشعر بالطمأنينة بعد الذِكر اليومي؟

الجواب: هذا الخاتم الذي فيه الأرقام ويُعَد به الذِكر، نقول أولًا: إنه خلاف السُنَة، فإن السُنَة أن الذِكر يُعَد بالأصابع، فإن النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يعقد التسبيح بيمينه الشريفة صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأنت يا مسلم إذا عقدت التسبيح بيدك اليمنى أَوْ بيديك فعلت عبادتين: الذِكر والعَقد، فالعقد عبادة والذِكر عبادة؛ فتؤجَر على الأمرين.

ومن وجهٍ آخر في تفضيل العقد باليدين على المِسبحة وعلى الخَاتم: أن اليد تكون معك في قبرك، وتُبعَث معك، وأما خاتم التسبيح والمسبحة فإنها لا تكون معك في قبرك ولا تُبعَث معك.

❖ **لكن هل يجوز للإنسان أن يسبح بالمسبحة؟ أن يسبح بخاتم التسبيح؟ نقول: يجوز بشروط:**

الشرط الأول: أَلَّا يعتقد أن التسبيح بالمسبحة أَوْ بالخَاتم أفضل من العد باليد ولا مساوي، لا يجوز أن يعتقد أن الخاتم أفضل من اليد، لماذا؟ لأن العقد باليد هو فعل النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن قال لنا قائل: مَا كان هناك خَاتم؟ نقول: كان هناك النوى، وكان هناك الحصى، وكان النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستطيع أن يَعُد بالنوى، يستطيع أن يَعُد بالحصى لكنه عد بيمينه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنقول الشرط الأول: أَلَّا يعتقد أن التسبيح بالمسبحة أَوْ الخاتم أفضل أَوْ مساوي للتسبيح باليد.

الشرط الثاني: أَلَّا يعتقد أن ذلك سُنَة وإنما يعتقد أن هَذِه وسيلة ليست سُنَة؛ لأن هذا لم يكن من سُنَة النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا يجوز أن يعتقد أنها سُنَة.

الشرط الثالث: أَلَّا يُجعَل ذلك شِعارًا على الطاعة؛ فيجعل الإنسان هذا شِعارًا على أنه مُطيع، يضع الخاتم في أصبعه ويريه الناس شِعار على أنه يُطيع ويذكر الله، والمِسبحة على أنها شِعار؛ هذا لا يجوز.

الشرط الرابع: أَلَّا يوافق أهل البدع، بمعنى: مَا يجعل مسبحته كمسابح أهل البدع، معروف يا إخوة أن أهل البدع العوام لهم مسبحة، والشيخ لَهُ مسبحة، والوتد لَهُ مسبحة، فلا يجوز أن يُجعَل ذلك على مراتب أهل البدع، فإذا كان ذلك كَذَلِكَ فإن الذي يظهر والله أعلم أن التسبيح والعَد بالمِسبحة أَوْ الحصى جائز لكن تركه أفضل إذا توفرت هَذِه الشروط.

السؤال: يا شيخ والله إني أحبك في الله، أنا رجل ليس لدي عمل وأحاول أن أتاجر وذلك يُبعدني عَنْ طلب العِلم وعن الدروس العلمية، فهل أنا أدخل في هَذِه الآية: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦] وجزاكم الله خيرًا؟

الجواب: أحبك الله يا أخي، وأسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يرزقك والمسلمين، لا شك أن طلب الرزق مشروع، وكون الإنسان يطلب الرزق بنية أن يُعِف نفسه عَنْ السؤال ويكفي أهله ذُل السؤال عِبادة يُثاب عليها الإنسان، لكن لا ينبغي أن تُخلي نفسك من الخير وسماع الدروس ولو بجزءٍ يسير، لكن لا شك أن المسلم إذا اشتغل بالرزق لا يدخل في هَذِه الآية وفي هذا المثل؛ لأن المقصود بالمثل: مَن تعلم فترك العمل بالعلم وانتكس إلى ضده والعياذ بالله ولم يعمل بعلمه، وآثر الباطل من أجل الدنيا على الحق الذي تعلمه

والعياذ بالله، أما مَا ذكره الأخ من الحال فهذا لا يدخل في هذا المثال وفي هذا المثل، وإن كنا نقول: ينبغي للإنسان ألَّا يُخلي نفسه من سماع العِلم.

السؤال: شخصٌ خرج من منزل والديه وأهله لأنهم يفعلون المنكرات والأمور الشركية ولا يقبلون منه، فما رأيكم بفعله بارك الله فيكم؟

الجواب: الواجب على الولد أن يُحسِن إلى والديه وأن يعاملهما بالإحسان والمعروف حتى لو جاهداه على الشرك؛ فإنه ينبغي أن يصاحبهما في الدنيا بالمعروف، وإذا كان أهلك على بعض المنكرات ويأمرونك بالبقاء معهم فاسمع وأطع ولا تشاركهم في المنكر، وانصحهم بما يليق، وامُرهم بالمعروف وانههم عَنْ المنكر، أما إذا كنت متزوجًا وكنت على قدرة أن تخرج في بيتٍ مستقل ولا يترتب على هذا مفاسد فهذا طيب حتى تربي أولادك تربيةً صالحة بعيدًا عَنْ المنكرات، على أن تصل أهلك بالمعروف وتُحسِن إليهم، واللهُ تَعَالَى أَعْلَى وَأَعْلَمُ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّد